جورج أمادو

فارس الرمال

ترجمة محمد عيتاني

جورج أمادو
فارس الرمال





الى الاصدقاء
بدر

رسالة من السيد قاضي الأحداث
إلى هيئة تحرير «صحيفة المساء»

السيد مدير «صحيفة المساء» مدينة سلفادور، ولاية باهيا

مواطني العزيز
تحيات طيبة

إنني لدى تصفحي صحيفتكم في إحدى الهنيهات النادرة من الفراغ التي تتركها لي مشاغلي المتعددة والمتنوعة في وظيفتي المرهقة. اطلعت على رسالة من حضرة قائد شرطة الولاية الذي لا يكل في تقديم جهوده لخدمة العدالة وراحة المواطنين. ويعرب في رسالته هذه عن الدوافع التي لأجلها لم تتمكن الشرطة حتى هذا اليوم من تشديد الحملة القمعية ضد أولئك الأولاد الخانعين الذين يعيثون فساداً في مدينتنا وينشرون فيها ما يشبه الوباء من الجرائم والارتكابات المختلفة. ويبرر السيد قائد الشرطة موقفه بإعلانه بأنه لم يكن يملك أمراً من محكمة الأحداث لأجل القيام بعمل موجه ضد جرائم الأولاد وجنحهم. وإنني، دون رغبة مني في أن أضع المسؤولية بأي حال من الأحوال على قيادة الشرطة الرائعة والتي لا تكل، أرى نفسي ملزماً، في صالح الحقيقة (هذه الحقيقة ذاتها التي نصبتها كمنارة تضيء طريق حياتي بضوئها النقي جداً) بأن أعلن بأن العذر الذي أبداه قائد الشرطة غير صحيح. إنه غير صحيح، يا سيدي المدير، لأنه لا يدخل في صلاحيات محكمة الأحداث مطاردة واعتقال الأحداث القصّر الخانعين، بل أن صلاحيتنا هي تعيين المكان الذي عليهم قضاء فترة عقوبتهم فيه، وتعيين قيّم لمتابعة أية محاكمة يحيلون إليها الخ. ولا يعود لصلاحية محكمة الأحداث القبض على الخانعين الصغار، بل أن صلاحيتها تقوم في السهر على مصيرهم اللاحق (أي بعد اعتقالهم إثر جرائمهم أو جنحهم). وإن على السيد قائد الشرطة أن ينتظر الالتقاء بي في المكان الذي يدعوني إليه الواجب ذلك لأنني طوال خمسين عاماً من حياتي النقية الناصعة، لم

اتلكأ أو أتأخر أو أتردد في تنفيذ واجبي.

كما أنني، خلال الأشهر الأخيرة المنصرمة، أرسلت إلى دار الاصلاحية عدة أحداث جانحين أو متشردين. وليس خطأي إذا كان هؤلاء الأولاد الأشقياء يفرون وإذا لم يكونوا يستفيدون من ميادين العمل التي يجدونها في هذه المؤسسة التربوية، وبالتالي فإنهم يبحثون عن جو يتمتعون فيه بالأمن والعمل، وحيث يعاملون بأكبر عطف. إنهم يفرون من الاصلاحية ويصبحون أكثر فساداً أيضاً، وكأن المثال الذي تلقوه كان سيئاً وضاراً. لماذا؟ إن هذه مشكلة يعود حلها إلى علماء النفس وليس إليّ الذي لست سوى فضولي صغير يهتم بالفلسفة.

وما أريد أن أجعله واضحاً كالبلور، هو أن السيد قائد الشرطة يستطيع الاعتماد على أفضل دعم من محكمة الأحداث لتشديد الحملة ضد الأحداث الجانحين أو المجرمين.

أني أخص سعادتكم اعجابي وتقديري

قاضي الأحداث

(نشرت في «صحيفة المساء» مع صورة لقاضي الأحداث وتعليق اطرائي صغير)

رسالة من أم «خياطة»
إلى هيئة تحرير «صحيفة المساء»

سيدي المحرر

اعذروني للأخطاء الاملائية والنحوية، نظراً لأنني غير معتادة على مسألة الكتابة، وإذا كنت أتوجه اليوم اليكم، فذلك لأجل وضع النقاط على الحروف. لقد رأيت في الصحيفة، مقالاً عن سرقات «فرسان الرمال» وإثر ذلك على الفور جاءت الشرطة لتعلن نبأها بسلاحهم وحينئذ جاء السيد قاضي الأحداث ليذكر أن من سوء الحظ كثيراً أن هؤلاء الأولاد المعتقلين لا يصبحون أفضل في الدار الاصلاحية التي كان يرسل اليها الأولاد المساكين. ولأجل الحديث عن دار الاصلاح المذكورة أكتب هذه السطور بخطي الرديء. وأتمنى أن ترسل صحيفتكم أقدر محرريها لترى الدار المذكورة ولكي يرى كيف يعامل أولاد الفقراء الذين شاء سوء حظهم أن يقعوا بين حراس تلك

الدار العديمي الروح والرحمة. لقد قضى ولدي المسكين هناك ستة أشهر ولو لم أتدبر المسألة لإخراجه حياً من هذا الجحيم لست أدري ما إذا كان المسكين سيستطيع أن يعيش هناك ستة أشهر أخرى دون أن يموت. إن أقل ما يتعرض له أولادنا في تلك الدار الاصلاحية هو أن ينالوا ضربات تنزل بهم مرتين أو ثلاث مرات كل يوم. إن مدير ذلك المكان يقضي حياته في شرب الخمر إلى حد أنه يتدحرج على الأرض وهو يحب أن يرى السوط يلعلع على جسدات أولادنا. وقد رأيت هذا المشهد مراراً عديدة، لأنهم لا يهتمون بنا. وهم يقولون إنهم يفعلون ذلك لتربية الولد بالمثل الصالح. لهذا أخرجت ولدي من هناك. وإذا أرسلت صحيفتكم إلى هناك شخصاً بالسر، فسوف يستطيع أن يرى نوعية الغذاء الذي يناله المساكين الصغار، والعمل العبودي الذي يرغمون على القيام به، وليرى كيف أن رجلاً مكتمل الرجولة لا يستطيع احتمال الضربات وأعمال السخرة التي تصيب الأطفال. ولكن لأجل رؤية هذه المشاهد، يجب أن يذهب أحد محرريكم إلى هناك بصورة سرية وإلا إذا علم المسؤولون عن السجن بوجود مندوب صحفي فإنهم سيظهرون المكان وكأنه جنة مشرعة الأبواب للنعيم. اذهبوا إلى هناك فوراً وسترون من الذي يقول الحق. ولأجل هذه الأشياء، وغيرها أيضاً يوجد «فرسان الرمال». وأفضل أن أرى ولدي بينهم، على رؤيته في تلك الدار الاصلاحية الدائمة الصمت. وإذا أردتم رؤية شيء، اذهبوا إلى هناك. وكذلك، إذا كنتم تريدون، تستطيعون التحدث مع الأب جوزيه بيدرو الذي كان كاهناً هناك، ورأى كل ما تحدثت عنه. وهو يستطيع أيضاً أن يروي ذلك وبعبارات أفضل، لست أملكها.

ماريا ريشاردينا ـ خياطة

(نشرت في الصفحة الخامسة من «صحيفة المساء» بين اعلانات، وبدون صورة ولا تعليق)

رسالة من الأب جوزيه بيدرو
إلى هيئة تحرير « صحيفة المساء »

السيد مدير تحرير « صحيفة المساء »

تحيات على اسم يسوع المسيح

قرأت في صحيفتكم ذات الشهرة الكبيرة رسالة ماريا ريشارديتا التي تذكر في نصها شاهداً قادراً على تقديم ايضاحات حول حقيقة حياة الاولاد المحبوسين في « الدار الاصلاحية » وأنا مضطر للخروج من الظلام الذي اعيش فيه، لأقول لكم بأنه . لسوء الحظ ، ان ماريا ريشارديتا هي على حق ، إن الاولاد في الدار الاصلاحية موضوع الحديث يعاملون كما تعامل الوحوش الضارية ، هذه هي الحقيقة. لقد نسي درس السيد المخرج اللطيف جداً . وبدلاً من كسب ود الاولاد ، بطرائق طيبة . فإن السجانين يجمعونهم اكثر فاكثر ، بعمليات ضرب متواصلة ، وعقوبات جسدية ، غير انسانية . وقد سمح بزيارة تلك الدار الاصلاحية لاحمل إلى الاولاد تعزيات الدين ، وقد وجدتهم فاقدي الاستعداد لتقبلها . وذلك طبعاً نتيجة للبغضاء التي تتراكم في هذه القلوب الفتية . الجديرين كثيراً بالشفقة وإن ما رأيته هناك ، يا سيدي المدير ، يمكن أن يقدم محتوى كتاب كامل . مع الامتنان الكبير لانتباهكم من خادم المسيح

الآب جوزيه بيدرو

(رسالة نشرت في الصفحة الثالثة من « صحيفة المساء » تحت عنوان « هل هذا صحيح ؟ » وبدون تعليق) .

رسالة من مدير الدار الاصلاحية
إلى هيئة تحرير « صحيفة المساء »

السيد رئيس تحرير « صحيفة المساء »

تحياتي

لقد تتبعت باهتمام كبير الحملة التي تشنها الصحيفة اللامعة في بابها ، هذه الصحيفة

التي تديرونها بذكاء قوي جداً ، ضد الجرائم المفزعة لـ « فرسان الرمال » وهي عصابة من الاولاد الجانحين والمجرمين التي تخيف المدينة وتمنعها من العيش باطمئنان. وعلى هذا النحو قرأت رسالتيّ اتهام ضد المؤسسة التي أديرها ، والذي يمنعني التواضع ، والموضع وحده حضرة السيد المدير ، من أن أصفها بـ « النموذجية » . وبالنسبة للرسالة التي وجهتها امرأة طيبة من الشعب ، فلست اهتم البتة بها. فهي لا تستحق أن أرد عليها ولا شك . وهي احدى النساء الكثيرات جداً اللواتي يأتين ويردن الحيلولة دون تحقيق للدار الاصلاحية للمهمة المقدسة لتربية أولادهن . وهن يربينهم في الشارع . وفي الوحل . وحين يخضع هؤلاء الاولاد عندنا لحياة نموذجية . فإن هؤلاء النساء ، هن أول من يشتكي . في حين أن عليهن أن يقبلن أيدي الذين يصنعون من أولادهن رجالاً حقيقيين . وهن يأتين منذ بدء تطلبن الحصول على مكان لأولادهن . وإثر ذلك تنتقل اليهم . وهم يشتقون أيضاً إلى نتاج السرقات الذي كان الاولاد يحضرونه إلى البيت . وينتهي بهن الأمر إلى الاحتجاج ضد الدار الاصلاحية . ولكن كما سبق لي القول ، سيدي المدير ، فإن هذه الرسالة لم تثر اهتمامي ، انها ليست من امرأة صغيرة من الشعب ، التي ستفهم العمل الذي احققه ، على رأس هذه المؤسسة ، وإن ما أثار ارتياعي ، يا سيدي المدير ، هو رسالة الاب جوزيه بيدرو ، رجل الدين هذا الذي ينسى وظائف رسالته ، وينطلق بالهجوم ضد المؤسسة التي أديرها ، موجهاً اليها اتهامات خطيرة . ان هذا الكاهن (الذي اسميه كاهن الشيطان ، إن سمحت لي بملاحظة صغيرة يا سيدي المدير) والذي استغل وظيفته للدخول الى مؤسستنا التربوية في أوقات ممنوعة في النظام الخاص بهذه المؤسسة ، والذي ضده شكوى جدية ، أريد أن اعلمها . لقد حرض الاولاد القاصرين الذين عهدت الدولة بهم اليّ ، على التمرد والعصيان . ومنذ أن دخل إلى هذه الدار ازدادت حالات التمرد ومخالفة الانظمة . إن الكاهن موضوع الحديث ليس سوى محرض ، ذي طبع سيء شرير . يقوم بتحريض الأولاد القاصرين الموضوعين تحت حراستي . ولأجل هذا ، أريد أن أمنعه من الدخول إلى دارنا الاصلاحية .

ومهما يكن يا سيدي المدير ، فإنني انسى حساني كلمات الحياكة التي كتبت إلى هذه الصحيفة . وأنا الذي اطلب اليكم أن ترسلوا محرراً إلى « الدار الاصلاحية » وإنني اعتبر هذه مسألة تخصني شخصياً ، وسيكون في وسعكم على هذا النحو ، ومعكم جمهور القراء أن تحصلوا على معرفة دقيقة وصادقة وثقة حقيقية حول كيف يعامل الاولاد القاصرون الذين تتجدد نفسانيتهم ويحققون التحسن في الدار الاصلاحية للأولاد

تحت ضوء القمر
في مستودع قديم مهجور

المستودع

تحت ضوء القمر، في مستودع قديم مهجور، كان الأولاد نائمين.

في الماضي كان هنا البحر. وعلى الحجارة الكبيرة السوداء لأسس المستودع، كانت الامواج تتحطم تارة في دوي وطوراً تأتي لتضرب الحجارة بلطف. وكان الماء يمر من تحت الجسر، الذي يرقد تحته الآن أولاد عديدون، تضيئهم خصلة صفراء من ضوء القمر. ومن هذا الجسر، خرجت سفن شراعية لا تحصى، مع شحناتها. وكان بعض هذه السفن هائلة الضخامة، مدهونة بألوان عجيبة، تمضي إلى مغامرات الاجتيازات البحرية. وهنا كانت تأتي السفن لملء عنابرها السفلى، والرسو تحت الجسر ذي الألواح المتآكلة اليوم. وفي الساحل، أمام المستودع، كان يمتد سحر البحر الاوقيانوسي، وكانت الليالي امامه خضراء معتمة، شبه سوداء، بهذا اللون الغامض السحري الذي هو لون البحر في الليل.

واليوم يرى الليل صبيراً تجاه المستودع، وذلك لأنه تجاه الليل تمتد الآن رمال أرصفة المرفأ. وتحت الجسر، لم تعد هناك هدير للأمواج. لقد اجتاحت الرمال كل شيء وأرجعت البحر عدة أمتار. شيئاً فشيئاً، وببطء، غطى الرمل واجهة المستودع. ولم تعد السفن الشراعية ترسو هنا أبداً. وكانت تبحر من مكان لآخر بحمولاتها. ولم يعد العبيد ذوو العضلات البارزة يعملون هنا، وكان قد أتى بهم نظام الرق. ولم تعد تتصاعد من تحت الجسر اغنية بحار أشجاه الحنين. وقد امتد الرمل بلونه المضيء امام المستودع. ولم يعد يملأ المستودع الواسع جداً بالبالات والطرود والأكياس والصناديق.

وبقي المستودع مهجوراً، وسط الرمال، بقعة سوداء على بياض ارصفة الميناء.

وطوال اعوام، ظل المستودع مأهولاً فقط بالجرذان التي كانت تجتازه في جري مرح وطائش. وكانت تقضم خشب ابوابه الضخمة، وكانت تسكنه سيدة عليه وحدها. وفي عهد معين، دخل اليه كلب متشرد، كان يبحث عن ملجأ ضد الريح والمطر. ولم ينم في ليلته الأولى، اذ انشغل في تمزيق الجرذان التي كانت تمر امامه مسرعة. وقد نام اثر

ذلك بضع ليال، نابحاً في وجه القمر، عند الصبح. ذلك لأن قسماً من السقف قد انهار، وكانت اشعة القمر تنفذ بحرية، مضيئة ارض المستودع المصنوعة من الواح خشبية. لكن هذا الكلب كان بلا شك كلباً دون صاحب، فذهب بسرعة باحثاً عن مأوى آخر: ظلمات باب، أو اعماق جسر، أو عن جسد دافىء لكلبة. واستعادت الجرذان مملكتها، حتى اليوم الذي اختار فيه «فرسان الرمال» هذا المستودع المهجور ليكون مقراً لهم.

في ذلك العهد، كان الباب قد انهار من جانب، ودخل احد «فرسان الرمال» إلى المستودع، حين كان يتسكع يوماً عبر املاكه الواسعة. (ذلك لأن كل منطقة رمال الارصفة، كما هي جميع انحاء مدينة «باهيا»، كان يملكها «فرسان الرمال»).

وكان هنا أفضل موضع تماماً للنوم منه على الرمل العاري، أو في المستودعات الأخرى حيث كانت المياه تتصاعد احياناً عالياً جداً بحيث تهدد باغراقهم. ومنذ تلك الليلة، أخذ قسم كبير من «فرسان الرمال» ينامون في المستودع القديم المهجور، في صحبة الجرذان تحت القمر الأصفر. وأمامهم كان الاتساع اللانهائي للرمال، وهي بياض لا نهاية له أيضاً. وفي البعيد، كان البحر الذي تتكسر امواجه على ارصفة الميناء. ومن الباب، كانوا يرون أضواء السفن التي تدخل وتخرج. وعبر السقف، كانوا يرون السماء الملأى بالنجوم، والقمر الذي يغمر ارجاء السماء والأرض بضيائه الباهر.

وبعد وقت قصير، نقلوا إلى المستودع مخزون الاشياء التي كانت تتجمع لديهم من عمل النهار، وقد دخلت حينئذ إلى المستودع اشياء غريبة، لكنها ليست مع ذلك اكثر غرابة من هؤلاء الأولاد اللصوص الاشقياء من جميع الألوان والاعمار، على اختلافها، منذ سن التاسعة حتى السادسة عشرة، ـ الذين كانوا في الليل يتمددون على الأرض، تحت الجسر، نائمين بلا مبالاة بالريح التي تهب حول المبنى وهي تزمجر، وغير آبهين بمياه المطر التي كانت كثيراً ما تغسلهم، لكنهم يبقون اعينهم موجهة نحو اضواء السفن وآذانهم منتبهة إلى الأغاني القادمة من المراكب...

ومما يحكى أيضاً زعيم «فرسان الرمال»: بيدرو بالا. ومنذ وقت مبكر، منذ سنه الخامسة، أطلق عليه هذا الاسم. وهو اليوم في الخامسة عشرة من عمره ومنذ عشرة اعوام وهو يتشرد ويتسكع في طرقات «باهيا». وهو لم يعرف أبداً أي شيء عن امه، وقد قُتل ابوه برصاصة. وبقي بيدرو وحيداً، وقضى سنوات في التعرف إلى المدينة. وهو اليوم يعرف كل دروبها وطرقاتها وشوارعها، ولا يوجد حانة أو محل لبيع الفواكه أو مقهى لا يعرفه. وحين انخرط في «فرسان الرمال» (إن الارصفة التي بنيت

حديثاً قد اجتذبت برمالها جميع اولاد المدينة المشردين) كان زعيم «الفرسان» هو رايموندو، «الكابوكل» (أي الخلاسي البرازيلي)، وكان فتى هجيناً قوي البنية وافر النشاط.

ولم يحتفظ ريموندو «الكابوكل» زمناً طويلاً بمركزه كزعيم «لفرسان الرمال». وكان بيدرو بالا اكثر نشاطاً منه بكثير. وكان يعرف كيف يرتب الضربات، ويعرف كيف يلاطف الآخرين. وكان يحمل في عينيه وفي صوته سلطة الزعيم. وفي أحد الايام، تشاجرا. وكان من سوء حظ ريموندو أنه استلّ موسى وجرح بها وجه بيدرو وهي ندبة بقيت في وجهه نهائياً. وتدخل الآخرون، ونظراً لأن بيدرو كان بلا سلاح، فقد اعطاه رفاقه الحق. وانتظروا، آملين بانتقام لم يتأخر في الحقيقة. وفي احدى الليالي، حين أراد ريموندو أن يضرب باراندا، وقف بيدرو إلى جانب الزنجي الصغير، وانقلب الخصمان على الأرض (أي ريموندو وبيدرو)، وانخرطا في صراع أكثر اثارة من أي صراع سبق أن شهدته رمال المرفأ. وكان ريموندو أكبر جسماً واكثر سناً، لكن بيدرو بالا، بشعره الاشقر المتطاير في الهواء، والندبة الحمراء في وجهه، كان ذا رشاقة هائلة في توجيه الضربات. وهكذا تغلب على ريموندو. ومنذ ذلك اليوم، لم يتخل ريموندو فقط عن قيادة «فرسان الرمال» بل ترك المكان كله، والتحق اثر ذلك بالعمل على احدى السفن.

وقد اعترف الجميع بحقوق بيدرو بالا في القيادة وابتداءً من ذلك الحين بدأت المدينة في سماع الحديث عن «فرسان الرمال»، اولئك الاولاد المشردين الذين يعيشون من السرقة. ولم يعرف أحد اطلاقاً العدد المضبوط للاولاد الذين يعيشون على هذا النحو. وكانوا اكثر من مئة ومن بين هؤلاء، كان اكثر من اربعين ينامون في المستودع القديم.

وكانوا يلبسون اسمالاً بالية، وقذرين وأشباه جائعين باستمرار، وعدوانيين، يطلقون الشتائم، ويدخنون اعقاب السجائر، وكانوا في الحقيقة سادة المدينة، أولئك الذين يعرفونها بكاملها، والذين يحبونها كلياً، وكانوا هم شعراءها.

ليل «فرسان الرمال»

كان ليل السلام الكبير القادم من ارصفة المرفأ قد لف السفن الشراعية ، والقلعة ، وسد الميناء ، وتمدد على طلعات الطرق وأبراج الكنائس . وكانت الاجراس قد كفّت عن الرنين لصلاة الغروب ، ذلك لأن الساعة السادسة كانت قد دقت منذ حين طويل . وإذا كان القمر لم يبزغ بعد في هذه الليلة النيرة، فقد كانت السماء ملأى بالنجوم . وكان المستودع منفصل المشهد عن بياض الرمال التي تحتفظ بآثار خطى « فرسان الرمال » ، الذين كانوا قد ناموا . وفي البعيد ، كان النور الضعيف لـ « بورتا دو مار » (وهي حانة للبحارة) يبدو وكأنه يحتضر . وكانت ريح باردة تهب مثيرة الرمال ومعرقلة سير الزنجي جواو غراندي الذي كان يتأهب للذهاب إلى النوم . كان يمضي منحنياً تحت الريح مثل شراع زورق . كان طويل القامة ، وهو أطول فتيان العصابة ، وأقواهم أيضاً . وكان شعره قصيراً وعضلاته صلبة ، رغم أنه لا يكاد يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، انقضت أربع منها في أوسع حريات الحياة . راكضاً في طرقات « باهيا » في صحبة « فرسان الرمال » . ومنذ بعد ظهر ذلك اليوم ، حين صرع أبوه ، وهو سائق عربة عملاق ، في صدمة من شاحنة ، في حين كان يقود حصانه إلى جانب الطريق ، لم يعد الفتى جواو غراندي إلى بيتهم الصغير في « المورو » (١) . وأمام « جواو » كانت المدينة الغامضة الملأى بالاسرار ، وقد ذهب لغزوها . إن مدينة باهيا ، السوداء والتقية ، هي غامضة تقريباً مثل غموض البحر الاخضر وامتلائه بالاسرار . ولأجل هذا بالذات ، لم يعد جواو غراندي إلى بيته أبداً . وقد انضم وهو في التاسعة من عمره إلى « فرسان الرمال » ، حين كان « الكابوكل » (الخلاسي ريموندو) ما زال هو الزعيم والمجموعة غير معروفة ، ذلك لأن الكابوكل لم يكن يحب أن يتعرض للخطر . وبسرعة كبيرة ، فرض جواو غراندي نفسه كواحد من زعماء المجموعة ، ولم يفته أبداً حضور أي من الاجتماعات التي كان ينظمها القادة لتدبير السرقات . وليس ذلك لأنه

(١) « المورو » : تلة يعيش عليها الزنوج في اكواخ .

كانت له مواهب خاصة كمعظم حوادث السطو هذه ، ولا حتى كان لديه ذكاء حاد بل بالعكس ، فقد كان التفكير يسبب له وجعاً في الرأس ، وكانت عيناه تحرقانه حين يحاول التفكير . وكان يصاب بذلك الألم أيضاً حين يرى شخصاً ما يسيء معاملة الصغير . حينئذ كانت عضلاته تتوتر ، وكان يصبح مستعداً لأية مشاجرة لكن قوته العضلية الهائلة كانت تجعله محترماً مرهوب الجانب ، وكان الصبي « دو الرجل الرخوة » يقول عنه :

- إنه زنجي غبي لكنه قوة جبارة

وكان الصبيان الأصغر سناً ، جميع هؤلاء الصغار الذين يصلون إلى الجماعة مفعمين بالخوف . كانوا يجدون في « جواو غراندي » اقوى حماتهم وأصلبهم . وكان بيدرو الزعيم يحب أيضاً الاصغاء إلى جواو . وكان هذا يعرف جيداً انه لا يحوز على صداقة بيدرو بسبب قوته ، أي جواو غراندي ، بل إن بيدرو كان يجد أن الزنجي طيب ، ولم يكن يتعب من الترديد

- أنت طيب . يا غراندي . وأنت أفضل منا . اني احبك كثيراً . وكان يربت بلطف على ساقي الزنجي الذي كان وجهه يحمر من التأثر والسرور .

كان جواو غراندي يتقدم نحو المستودع . وكانت الريح تعرقل سيره ، وانحنى هو لكي يقاوم ضد الريح التي كانت ترفع الرمال في الهواء . وكان جواو في حانة « بورتا دو مار » يشرب كأساً من الخمر مع « حبيب الله الطيب » الذي وصل اليوم من بحار الجنوب ، حيث يوجد أحد المصائد .

وكان « حبيب الله الطيب » هو أشهر لاعب كابويرا (٢) في المدينة . ومن الذي لا يحترمه في « باهيا » ؟ . وما من أحد يستطيع أن ينافس « حبيب الله الطيب » في مصارعة الكابويرا ، حتى ولا زيه موليث الذي حاز شهرة عظيمة في ريو دي جانيرو . وقد روى « حبيب الله الطيب » الاخبار ، وأبلغ بأنه سيظهر في اليوم التالي في « المستودع » لمواصلة اعطاء دروس في مصارعة الكابويرا التي يتلقاها بيدرو بالا ، وجواو غراندي ، و « القط » . كان جواو غراندي يدخن سيجارة ويسير نحو المستودع . وكان اثر قدميه الكبيرتين ينطبع في الرمل . لكن الريح ، كانت تقوم بمحو آثار خطاه . وكان الزنجي

(٢) الكابويرا : طريقة مصارعة ولدت من رقصة للزنوج ، وقد احتفظت منها بالايقاع والتي تصاحب حركاتها عزف موسيقى خاصة . وهذه المصارعة التي تشكل انتصار الرشاقة على القوة هي المصارعة الوطنية الممتازة

يفكر في أن طرق البحر خطرة في هذه الليلة الهوجاء الريح.

كان جواو غراندي يمر تحت الجسر، وتنغرس قدماه في الرمل متلافياً أن يمس اجسام الرفاق الذين يرقدون هنا. ودخل إلى المستودع، وقد تردد لحظة، ونظر حتى يتبين ضوء شمعة «الاستاذ» وكان هذا في ابعد زاوية من المبنى. آخذاً في القراءة على ضوء شـ... كان جواو غراندي يفكر في أن هذا الضوء هو اضعف وأكثر تراقصاً من ... في حانة «بورتا دي مور» وأن «الاستاذ» يضعف بصره لكثرة قراءته هذه الكتب المطبوعة بأحرف صغيرة واتجه جواو غراندي نحو «الاستاذ» رغم أنه، أي جواو، كان ينام دائماً عند باب ... مثل كلب حراسة، والخنجر قرب يده، لئلا في أية ساعة.

كان يمضي سائراً بين جماعات الفتيان التي تتناقش، وبين الاولاد النائمين، ووصل إلى قرب «الاستاذ»، وقرفص إلى جانبه، وراح يراقب القراءة المتنبهة للشخص الآخر

إن جواو - جوزيه «الاستاذ»، منذ اليوم الذي سرق فيه كتاباً من على رف منزل في حي «بارا» قد اعتبر أستاذاً في هذا النوع من السرقة، بيد أنه لم يقم أبداً ببيع الكتب التي كانت تتكدس في احدى زوايا المستودع، تحت قطع الآجر، لكي لا تقرضها الجرذان. كان يقرأها كلها نظراً اقرب إلى الحمى. وكان يحب أن يعرف الاشياء، وكان هو نفسه الذي يروي، في كثير من الليالي، للفتيان الآخرين قصص المغامرين، والبحارة والشخصيات البطولية والاسطورية، وهي قصص كانت تشحذ هذه العيون المتوهجة نحو البحر أو نحو طلعات المدينة، في تعطش إلى المغامرات والبطولة. كان جواو - جوزيه هو الوحيد بين فتيان «فرسان الرمال» الذي يقرأ بصورة صحيحة، ومع ذلك لم يقض في المدرسة سوى عام ونصف، لكن الممارسة اليومية للقراءة قد أيقظت خياله كلياً، وربما كان هو الوحيد بين رفاقه، الذي لديه وعي معين لما يوجد من بطولة في حيوات الناس. وهذه المعرفة وهذه القدرة على رواية القصص قد أكسبته احترام «فرسان الرمال» له، رغم أنه كان صغير الجسم، نحيفاً وحزيناً، وشعره البني يتساقط على عينيه الضيقتين الحسيرتين (ميوب). وقد لقب بـ «الاستاذ» لأنه تعلم في احد الكتب المسروقة القيام ببعض الالعاب السحرية، مع مناديل ودراهم، وكذلك لأنه لدى روايته القصص التي كان يقرأها، وكثيراً غيرها كان يتخيلها، كانت لديه القدرة العظيمة والغامضة بالاسرار، لنقلهم إلى عوالم متعددة، وكانت لديه القوة لجعل العيون المتوجهة لـ «فرسان الرمال» تبرق متلألئة كما تتلألأ وحدها نجوم ليل

«باهيا» ولم يكن يبدور بالا يقرر شيئاً دون أن يستشير «الاستاذ» وكثيراً ما كان خيال «الاستاذ» هو الذي ولد أفضل خطط السرقة ولم يكن احد يعرف مع ذلك، أنه سيأتي يوم، بعد أعوام كثيرة، حيث سيعلمه أن يروي في لوحات ستثير رعب البلاد، قصة حيوات «فرسان الرمال»، وكثير من القصص الاخرى لرجال يناضلون ويعانون الكثير من المتاعب والمآسي. ربما كانت دون آنينها[3] وحدها، أو معها «ماي دي سانتو»[4] هي التي تعرف ذلك، والتي تروي مغامرات الابطال الزنوج والخلاسيين في ليالي العواصف.

ظل جواو غراندي وقتاً طويلاً ينظر إلى الآخر وهو يقرأ. وبالنسبة للزنجي، لم تكن هذه الحروف تعني أي شيء. وكان بصر الزنجي ينتقل من الكتاب إلى ضوء الشمعة المتراقص، ومن هذا إلى الشعر المشعث «للاستاذ» وانتهى به الامر إلى التعب، وسأل بصوته الحار المليء: - أهذا جميل يا «استاذ»؟

حول الاستاذ نظره عن الكتاب، وربت بيده النحيفة المعروقة على كتف الزنجي، أكثر المعجبين به حرارة وقال، انها قصة رائعة يا كبيري العظيم.

والتمعت عينا الأستاذ.

- أي قصة بحار؟

- انها قصة زنجي مثلك تماماً. وهو زنجي رقوي في الحقيقة.

- هل ترويها لي؟

- حين انتهي من قراءة الحكاية، سوف ترى أي زنجي عظيم هو بطلها...

وعاد ليستغرق في صفحات الكتاب واشعل جواو غراندي سيجارة رخيصة، وقدم في صمت سيجارة اخرى «للاستاذ»، وراح يدخن، مترفعاً كما لو أنه كان يسحر في قراءة الآخر، وعبر المستودع كان ينتشر صوت ضحكات، وثرثرات، وصخب. وكان جواو غراندي يتميز بوضوح صوت «ذي الرجل الرخوة»، الذي كان يصر صريراً ويجمجم. كان «ذو الرجل الرخوة» يتكلم عالياً ويضحك كثيراً. وكان هو جاسوس المجموعة، ذلك الذي كان يعرف كيف يدخل طوال اسبوع في

(٣) دون آنينها، حرفياً. السيدة آنيت

(٤) «ماي دي سانتو» و«باي دي سانتو»، كهنة الصلوات العشية (أو التيمية، وهي عبادة الاشباح السحرية) للدين الزنجي. وهؤلاء الكهنة كانوا على حد سواء، نساء «أي ماي دي سانتو»، أو الرجال، «باي دي سانتو»، أي بالضبط أم القديس أو أبو القديس.

احدى العائلات، متظاهراً بأنه غلام طيب صغير اضاعه اهله في الاتساع العدواني للمدينة

وكان اعرج. لُقب لاجل ذلك بـ «ذي الرجل الرخوة». لكنه عاد عليه ايضاً بعطف امهات عائلات بريئة على عتبة منازلهن، مستكيناً حزين المظهر، يستعطي قليلاً من الطعام والمأوى لأجل ليلة. والآن وسط المستودع، كان «ذو الرجل الرخوة» يسخر من «القط» الذي اضاع نهاراً بطوله في سرقة خاتم بلون نسذي، دون أية قيمة، لأنه حجر مزيف دو جمال مزيف أيضاً

وكان قد مر اسبوع و«القط» قد ابلغ جميع الناس قائلاً: لقد رأيت احد تلك الخواتم الرائعة، يا اخي الكبير، الذي لا يملك مثله حتى المطران. انه خاتم ملائم تماماً لأصبعي ملائم كلياً أيها الأخ. وسوف ترى حين سأحضره

- من أية واجهة زجاجية؟

- في أصبع احد الحمقى وهو شخص بدين جداً يستقل كل يوم قطار بروتاس، في اسفل حي ساباتيرو

وقد نجح «القط» اخيراً وسط الزحمة الشديدة في قطار الساعة السادسة مساء، في سحب الخاتم من أصبع الرجل البدين، محتمياً وسط الهرج والمرج الذي ساد القطار عند صراخ الرجل الضخم حين تبين سرقة خاتمه. وأظهر «القط» الخاتم في اصبعه الأوسط لرفاقه من «فرسان الرمال».

وكان «ذو الرجل الرخوة» يضحك

- هل يمكن لشخص عاقل أن يعرض نفسه للسجن لأجل قذارة كهذا الخاتم. انه مثلم قذر

- وماذا يهمك أنت من هذا؟ أنا يروق لي هذا الخاتم، وهذا كل شيء.

- انك تخلص هنا كالاحمق مع هذه القذارة.

- ولكن بالعكس، فهو لطيف جداً في اصبعي ولدي فكرة أخرى لأسرق خاتماً اجمل منه أيضاً

وكان الفتيان يتحدثون أيضاً طبعاً عن النساء، رغم أن اكبرهم سناً لا يكاد يتجاوز السادسة عشرة من عمره. وكانوا في سن مبكرة يعرفون اسرار الحب.

إن بيدرو بالا، الذي دخل، قد حسم المجادلة التي نشبت. وترك جواو غراندي «الاستاذ» في قراءاته، واقترب من الزعيم. وكان «ذو الرجل الرخوة» يضحك لوحده، منتماً بكلمات في صدد الخاتم. ودعاه بيدرو، واتجها يتبعهما جواو غراندي، نحو الزاوية حيث يوجد «الاستاذ».

- تعال اذن. أيها «الاستاذ».

وجلسوا اربعتهم. واشعل «ذو الرجل الرخوة» عقب سيجارة ممتازة، وراح يدورها بيده. وكان «جواو غراندي» يتفحص القسم من البحر الذي كان يرى عبر الباب. وراء الرمال. وتكلم بيدرو

- إن غونزاليس من الحي (١٤) قد حدثني اليوم.

- هل هو يريد أيضاً سلسلة ذهبية؟ وفي المرة الاخيرة ... وتوقف «ذو الرجل الرخوة» عن الكلام

قال بيدرو: كلا، بل انه يريد قبعة ولكن من اللبد الممتاز. أما قبعة القش فلا تساوي شيئاً. وهو يقول ان هذه لا يمكن عملها ... وكذلك ..

- هذا أيضاً هكذا: قاطعه مجدداً «ذو الرجل الرخوة».

- وكذلك فإن القبعات البالية جداً لا تناسب

- إنه يريد قبعة فاخرة من اللبد. لا غير. وعلى كل حال، فنحن نعمل معه في تجارة. وهو لا يجود علينا حتى بنص دوبس.

- لا بأس يا «ذا الرجل الرخوة». إذا كنت تريد السير في المسألة. اذهب. ولكن دعنا نرتب المسألة بصورة منسجمة وصالحة

- أقل اني لا أريد المضي في هذه العملية. بل اقول فقط إن العمل من أجل حي يسرق الموميات ليس عملاً مناسباً. ولكن اذا كان يروق لك

- إنه يقول بأن هذه المرة سيكون سخياً معنا. وسيقدم مالاً يساوي جهدنا. لكنه لا يريد سوى قبعة من اللبد، قوية وجديدة. واسمع، «ذو الرجل الرخوة» سوف نستطيع مع آخرين ان نأخذ المسألة على عاتقك. وغداً مساءً، سيرسل غونزاليس إلى هنا مستخدماً من الحي ١٤، لحمل النقود وأخذ القبعات

- ان المكان المناسب لهذه العملية هو دور السينما. هكذا قال «الاستاذ» وهو ينتصب نحو «ذي الرجل الرخوة»

- إن سينما «فيكتوريا» هي مكان يقصده الناس الاغنياء

وابدى «ذو الرجل الرخوة» حركة ازدراء. ويكفي الامر الدخول إلى أروقة السينما، والعثور على قبعات بالتأكيد. وهذه الدار هي مقصد الناس من ذوي اليسر والغنى ... من أعلى مستوى من الناس

- وهناك رجال الشرطة أيضاً

- هل يهمك الشرطة؟ إن حراس دور السينما يكتفون بالتفرج على الأفلام، وممارسة لعبة التحشئة

- هل تأتي معي أيها «الاستاذ»؟

- سآتي لا سيما وأنا في حاجة إلى قبعة جديدة

وأضاف بيدرو بالا:

خذ في رفقتك من تريد من الفتيان، يا «ذا الرجل الرخوة» باستثناء الطويل و«القط» اللذين لدي معهما مشروع لأجل الغد

واستمر نحو «جواو غراندي»:

- إنها عملية مع «حبيب الله الطيب»

- لقد سبق وحدثني عنها وقال إنه جاء هذه السنة لأجل مصارعة «الكوبرا»

وانصرف بيدرو نحو «ذي الرجل الرخوة» الذي كان ينسحب ليدبر مع صاحبه الفتى «سكر الشعير» تشكيل الفريق من الصبيان الذي سيذهب في اليوم التالي للبحث عن قبعات. وقال له بيدرو:

- تنبه، يا «ذا الرجل الرخوة»

ونبه الفتيان إلى أنه إذا افتضح أمر أحدهم فعليه أن يفارق هذا المكان نهائياً ويجب أن لا يعود إلى هنا إطلاقاً

وقضم بيدرو سيجارة، ومد به جواو غراندي واحدة وكان «ذو الرجل الرخوة»، الذي صار بعيداً، كان يدعو «سكر الشعير» وراح بيدرو يبحث عن «القط» وكان يريد أن يناقش معه مسألة عملية أخرى. وعاد إثر ذلك، وتمدد قرب موضع جلوس «الاستاذ» واستعاد هذا كتابه، وظل عاكفاً على قراءته حتى ذابت الشمعة كلياً، وغمرت الظلمة ذلك المكان. وسار «جواو غراندي» بهدوء نحو الباب، حيث رقد بطوله، واحتجر في حرامه

كان «سكر الشعير» نحيفاً وطويلاً جداً، ذا وجه جاف شبه مصفر، وعينين غائرتين محاطتين بالسواد، وفم واسع. فعل الاسلام وراح «ذو الرجل الرخوة» في سخريته منه، سائلاً إياه إذا «كان قد بدأ صلواته»، ثم تطرق إلى موضوع سرقة القبعات. وقد اتفقا على أنهما سيصطحبان عدداً من الأولاد الذين اختاراهم بعناية، وعلى موضع القبعات وافترقا. وذهب «سكر الشعير» إلى موضعه المعتاد، في إحدى زوايا المستودع، وكان يبدو بصورة دائمة في موضع يشكل خدراً عند زاوية داخلية، وقد وضع هناك كل أشيائه وممتلكاته، وهي عبارة عن لحاف بال، ووسادة

سرقها من فندق حيث دخل إليه في أحد الأيام حاملاً أمتعة أحد المسافرين. وكان لدى «سكر الشعير» أيضاً بنطلون كان يلبسه يوم الأحد مع كنزة لا يمكن تحديد لونها، لكنها نظيفة بعض الشيء، على كل حال. وكانت هناك صورتان لقديسين موضوعتان في إطارين، وهما مسمرتان في الجدار، كانت إحداهما صورة للقديس أنطوان يحمل بين ذراعيه الطفل يسوع المسيح. (كان اسم «سكر الشعير» هو أنطوان، وقد سمع من يقول إن القديس أنطوان كان برازيلياً) والصورة الثانية كانت تمثل «سيدتنا ذات السبعة آلام»، ذات الصدر المثقوب بالسهام، ولكن كانت توجد تحت إطارها زهرة ذابلة. وتناول «سكر الشعير» الزهرة، وشمها ووجد أنها لم تعد تفوح بأية رائحة. وحينئذ علقها في الكتفية (وهو ثوب يلبسه الرهبان على الكتفين والظهر) التي كان يرتديها على صدره، وأخرج من جيب سترة قديمة يلبسها، زهرة قرنفل حمراء قطفها من إحدى الحدائق، تحت نظر الحارس بالذات، عند لحظة الغروب الغامضة، ووضع القرنفلة بعناية وحب تحت إطار الصورة. في حين راح يتأمل القديسة بنظرة مفعمة بالحب. وإثر ذلك على الفور، ركع يصلي. وفي البدء كان الفتيان الآخرون يهزؤون بالتشكيك عليه لرؤيته راكعاً في الصلاة. ومع ذلك فقد اعتادوا على مشاهدته كذلك ولم يعد أحدهم يعير الأمر أهمية. وراح يصلي، وكان مظهره المعبر كزاهد يردد طهوره. وكانت يداه الطويلتان والنحيفتان ترتفعان أمام صورة القديسة، في حركة عبادة. وكان كل وجهه كأنما هو يحدق ببهائه وكان صوته يكتسب أنغاماً ورعشات يجهلها رفاقه. وكان يظهر مأخوذاً إلى خارج هذا العالم، وكأنه لم يعد داخل المستودع المتداعي والمتهدم بل في أرض أخرى قرب سيدتنا ـ ذات الآلام ـ السبعة. بيد أن صلاته كانت بسيطة، وهي لم يتعلمها في كتاب الصلوات. كان يطلب في صلاته من العذراء مساعدته في أحد الأيام لكي يستطيع التحول إلى تلك الكلية المقدسة (السودرية) التي يتخرج منها الفتيان وقد تحولوا إلى كهنة. وكان «ذو الرجل الرخوة» قد رتب تفصيلاً عملية القبعات. وإثر رؤية رفيقه وهو يصلي، تأمله بمزاح خبيث. وهو مزاح كان مجرد التفكير فيه يدخل السرور والبهجة إلى قلبه، وكان يشوش بذلك كلياً صلاة صديقه «سكر الشعير». وحين وصل «ذو الرجل الرخوة» إلى قرب المصلي، رآه في حالته هذه، رافعاً يديه في حركة عبادة وعيناه مرتفعتان نحو مكان مجهول، ووجهه مضيء بعبوسية الإيمان. (وكان كأنه مغمور بهناء ونعيم لا حدود لهما) توقف «ذو الرجل الرخوة» وماتت الضحكة الساخرة على شفتيه، ولبث يتفحص صديقه، وهو شبه خائف. وقد اجتاحه شعور بعود بعض

الشيء إلى الرغبة وإلى اليأس. وتوقف «ذو الرجل الرخوة» ناظراً، ولم يكن «سكر الشعير» يتحرك. وكانت شفتاه وحدهما تتحركان ببطء. وكان من عادة «ذي الرجل الرخوة» أن يسخر منه كما كان يسخر من جميع الأصحاب الآخرين في المجموعة حتى من «الأسعد» الذي كان يحبه، ومن بيدرو بالا الذي كان يحترمه. وكان كل وافد جديد إلى «فرسان الرمل» يكون لدى وصوله فكرة قاسية عن «ذي الرجل الرخوة»، ذلك لأن هذا الأخير كان يسارع إلى مهزأة به، ضاحكاً إزاء أية عثرة يسقط بها بعضهم أو جديد. وكان يحول كل شيء إلى موضوع مضحك. وكان من أكثر الفتيان ولعاً بالمعارك والمشاجرة، وكانت شهرته في الخبث راسخة بقوة. وفي أحد الأيام، قام بعملية تعذيب عجيبة ضد قط دخل إلى المستودع القديم. وفي مرة أخرى، قام بضربة فلوس علامات في أحد المطاعم ودخل فقط ليسرق منه فروجاً مشوياً. ولكن رفاق «ذي الرجل الرخوة» قد رأوه يوماً وهو يتلقى، ببرود، جراحاً في ساقه بواسطة مطواة (عربية) وتحت نظر الجميع قام بذلك العمل وهو يضحك. وفي المجموعة كان كثيرون لا يحبونه. لكن الذين كانوا يغضون النظر عن عيوب «ذي الرجل الرخوة» ويرتبطون معه في صداقة كانوا يقولون عنه إنه «شخص طيب». وفي أعمق أعماق نفسه، كان يتألم لآلامهم ومصائبهم جميعاً. وكان وهو يضحك ويسخر، يفتش عن شيء ينسيه نفسه وكان ذلك بالنسبة إليه مثل مخدر. وقد بقي ساكناً دون حركة وهو ينظر إلى «سكر الشعير» المستغرق في صلاته. وعلى وجه المصلي، مرت لمعة حماسة شديدة، وشيء حسبه منذ البدء «ذو الرجل الرخوة» ابتهاجاً أو غبطة. لكنه راح يتفرس في وجه الآخر، وعثر فيه على نعيم لم يكن يعرف كيف يحدده. وكان يتفحص وجهه الصغير ويفكر في أنه ربما هذا بالضبط ما لم يتسن له أبداً في حياته أن يفكر في الصلاة ولا في أن يتجه نحو السماء، التي كان يحدثهم عنها كثيراً الأب جوزيه بيدرو، حين كان يأتي لزيارتهم. وكان ما يريده «ذو الرجل الرخوة» هو السعادة، والفرح والبهجة. وكان يفر من كل هذا البؤس وهذه التعاسة التي تحوم حولهم وتخنقهم. صحيح أنه كانت هناك ضجة حرية كبيرة يسبحه في الطرق وشوارع شاسعة لا تعد. ولكن كانت هناك حتى على يد مد نحوه عطوف، (القصد كل كلام طيب)، وهذا كله كان «سكر الشعير» يبحث عنه في السماء، وفي الصور المقدسة، وفي الأزهار الذابلة التي كان يأتي بها للعذراء ... الآلام ... عندما يعمل شاب في حي المدينة الأرستقراطي ... الفتاة التي يحبها. لكن «ذا الرجل الرخوة» لم يكن

يفكر في أن هذا يمكن أن يكفي. وكان ما يريده هو، شيئاً فورياً، شيئاً يجعل وجهه باسماً ومبتهجاً، ويحرره من الحاجة والعوز، ويجعله يسخر من الجميع ومن كل شيء، وأن يحرره أيضاً من هذه الغصة وهذا القلق الخانق وهذه الرغبة في البكاء التي كانت تنتابه في ليالي الشتاء. ولم يكن يريد الأشياء التي يسعى إليها «سكر الشعير». هذه العذوبة الحزينة في وجهه. كان «ذو الرجل الرخوة» يريد الفرح والبهجة، ويريد مداعبة، وشخصاً ينسيه بكثير من الحب العاهة الجسدية (من عرجه) وجميع هذه السنوات (وربما لم تكن هي بالكاد سوى شهور أو أسابيع لكن بالنسبة له ستظل دائماً أعواماً طويلة) التي عاشها وحيداً في طرقات المدينة وشوارعها، تعامله المارة بقسوة وسخرية، ويهال رجال الشرطة عليه بالضرب، بسبب وبدون سبب، وكذلك للاستمتاع الأكبر سناً. ولم يكن له أبداً عائلة وقد سكن في منزل خباز كان هو «عرابه» لكن هذا كان يضربه أيضاً. وقد فر من ذلك المنزل بعد أن استطاع أن يفهم أن الفرار يمكن أن يحرره. لقد عانى الجوع. ثم في أحد الأيام ساقوه إلى السجن. كان يريد مداعبة حنان، ويداً تمحو من عينيه ذكريات تلك الليلة في السجن، حين جعله الجنود السكارى يركض على رجله العرجاء دائراً حول الغرفة. وفي كل زاوية كان يوجد شخص مسلح بهراوة من المطاط الصلب. والآثار التي تركتها هذه الهراوات على ظهره قد امحت. ولكن في عمق نفسه لم يمح أبداً الألم الذي أصابه في تلك اللحظة. كان يركض في الغرفة مثل حيوان تطارده حيوانات أخرى أقوى منه. كان يجد صعوبة في تحريك ساقه العرجاء. وكان سوط المطاط ينزل على ظهره حين كان التعب يجبره على التوقف. في البدء بكى كثيراً، ثم ودون أن يدري كيف جفت دموعه. وفي لحظة معينة، لم يعد يقوى فيها على الضرب الذي ينهال، سقط منهاراً على الأرض. كان لحمه المحروق ينزف دماً. وما زال حتى اليوم، يسمع ضحكات الجنود وضحكة ذلك الرجل ذي الصدرة الرمادية الذي كان يدخن سيجاراً. وإثر ذلك، التقى فرسان الرمال، (وكان الأستاذ هو الذي جاء به، بعد أن نشأ بينهما تعاطف على مقعد في حديقة) وبقي معهم. ولم يفطن أحد للأمر حتى غير ذلك لأنه كان يعرف، أفضل من أي شخص آخر، أصابع ... تديد، وبذلك يخدع المشهورات (زبانات المنزل) اللواتي كن يسررن مرتين بعد ذلك أفراد العصابة الذين كان قد أعلمهم بجميع المواضع التي تحتوي على الأشياء الثمينة. ولكن عادت المنزل وكان «ذو الرجل الرخوة» يحس بارتياح حقيقي حين يتصور كم سوف يعنف هؤلاء النساء اللواتي حسبنه يتيماً مسكيناً. هكذا كان يثأر، لأن نفسه كانت مليئة بالحقد والبغضاء. كان يحس برغبة سوداء في امتلاك قنبلة (مثل

تلك القنابل التي ورد ذكرها في قصة رواها هو « الاستاذ ») قنبلة تستطيع أن تدمر المدينة كلياً ، وأن تنسف العالم بأسره . وعلى هذا النحو سوف يكون سعيداً . وربما سيكون سعيداً أيضاً اذا جاء شخص ، ربما امرأة ذات شعر وخطه الشيب ، ويدين ناعمتين ، تشده على صدرها ، وتداعب وجهه وتجعله ينام نوماً هنيئاً ، نوماً لا تعكره كوابيس ليلة السجن . على هذا النحو سيكون سعيداً ، ولن يفعم الحقد قلبه بعد ذلك . ولن يشعر بعد ذلك بالازدراء ولا بالحسد ، ولا بالعصاة ضد « سكر الشعير » ، الذي يفر ، رافعاً يديه إلى الأعلى ، نحيبين بانتشي ، من عالم الآلام نحو عالم عالٍ ، يكشف عنه احاديث الأب جوزيه بيدرو .

اقتربت خمسة اصوات . ووصلت جماعة من اربعة غلمان تشق السكون السائد في ليل المستودع . قفز « ذو الرجل الرخوة » ضاحكاً وراء ظهر « سكر الشعير » ، الذي استمر يصلي ورفع كتفيه وقرر أن يترك إلى صباح اليوم التالي تحديد تفاصيل سرقة القبعات وبطر . لأن « ذا الرجل الرخوة » يخشى النوم ، فقد تقدم نحو جماعة الغلمان التي وصلت ، وطلب سيجارة ، معلقاً ببعض النكات حول قصة المرأة ، التي كان يرويها الغلمان الأربعة .

ـ صبيان من طرازكم ، من يمكن أن يصدق بأنكم قادرون على بطح امرأة ؟ لا بد أنها حالة لعينة تلبس ثياب بنت صغيرة .

غضب الآخرون .

ـ لا تتظاهر بالمكر والشطارة على كل حال . اذا شئت تعال لترى معنا ، وهكذا سوف تتعرف إلى البنت التي تشكل فريسة جيدة .

ضحك « ذو الرجل الرخوة » ساخراً .

ـ بي ست من مكافحي الجرائم . ومضى إلى عمق المستودع .

لم يكن « القط » قد نام بعد . انه يخرج دائماً بعد الساعة الحادية عشرة ، انه الغلام الانيق في الجماعة . وعند وصوله وهو غلام ابيض وودي ، حاول « الشارب المطيف » الاستيلاء عليه ، ولكن منذ ذلك الحين ، كان « القط » ذا رشاقة وخفة هائلتين ، ولم يكن نادماً ، كما كان يظن « الشارب المطيف » ، من عائلة برجوازية . بل كان « القط » قادماً من الهنود المالوكيريوس ، وهم اولاد يعيشون تحت جسور اراكاجو ، المدينة البرازيلية . وقد قام برحلته متعلقاً بمؤخرة احد القطارات ، وكان مطلعاً على الحياة التي يمكن أن تعيشها جماعة من الاولاد المشردين . وعلى كل حال ، كانت سنه تربو على ثلاثة عشر عاماً . هكذا ، استطاع فوراً اكتساب نذر غامضة من أهله « الشارب المطيف » باحترام كبير . وكان « الشارب المطيف » خلاسياً مربوع القامة ، قبيح الشكل ، قدم

للغلام الوافد حديثاً سجائر وأعطاه شيئاً من عدته وارتاد المدينة معه . واثر ذلك ، اشتركا في سرقة حذاء جديد كان معروضاً في واجهة دكان في حي الكندرجية . وقال « الشارب المطيف » :

ـ كن مطمئناً ، أنا اعرف أين يمكن أن نبيع هذا الحذاء .

ألقى « القط » نظرة على حذائه البالي .

ـ كنت بالضبط أريد أخذ هذا الحذاء لي . لقد بدأت احتاجه .

ـ أنت ؟ أنا أرى أن حذاءك ما زال جيداً تماماً . هكذا صاح « الشارب المطيف » ، الذي كان نادراً ما يلبس حذاء ، وكان حافياً في ذلك الحين .

ـ سأدفع لك ـ ثمن حصتك . ما رأيك ؟

ألقى « الشارب المطيف » نظرة على رفيقه . كان « القط » يلبس عقدة رقبة ، وسترة مرقعة ، وشيء هائل ! كان يلبس حذاء وجوربين .

قال له « الشارب المطيف » بابتسامة : أنت تمارس الاناقة ، أليس كذلك ؟

ـ إني لم أولد لأحل هذه الحياة . لقد ولدت لأعيش في عالم العظيم ، هكذا قال « القط » ، مردداً عبارة سمعها يوماً من حواّت (بتشديد الواو) عاري ، في احدى حانات اراكاجو .

مؤكد أن « الشارب المطيف » كان يرى « القط » لطيفاً فاتناً . كان هذا ذا هيئة برقة ، ومع أن جماله لم يكن انثوياً ، فقد كان يروق لـ « الشارب المطيف » الذي ، على كل حال لم يكن يروق للنساء كثيراً ، ذلك لأنه كان قصيراً ونحيفاً ، فكان يظهر أصغر بكثير من سن الثلاثة عشر عاماً ، التي هي سنه فعلاً . أما « القط » ، من جهته ، فكان طويل القامة ، وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وقد بدأ زغب ناعم ينبت على شفتيه ، وكان يعتني به كثيراً .

ورأى « الشارب المطيف » أن من الأفضل أن لا يلح في التقرب الى الغلام ، لكي لا يثير خوفه . لم يكن يعرف أي شيء عن « القط » ، ولم يكن يتصور أن هذا يدرك مقصده تماماً . وأنه يقترب له لكي يمسكه .

ساراً معاً هرباً من الليل ، وهما ينظران إلى أضواء المدينة . (كان « القط » مذهولاً في نوبة) . وحوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً ، عادا إلى المستودع . وقدم « الشارب المطيف » « القط » إلى بيدرو ، واصطحبه ـ أي « القط » ـ إلى حيث ينام .

ـ لدي غطاء هنا ، وهو كبير بحيث يتسع لنا نحن الاثنين .

رقد « القط » وتمدد « الشارب المطيف » إلى جانبه . وحين ظن أن الآخر قد أغفى ،

احتضنه بأحد ساعديه، وبالساعد الآخر بدأ يلطف بتجريده من لباسه، وبغمضة عين، نهض «القط» واقفاً.

ـ أنت غلطان يا حلاوتي.. فأنا رجل!

لكن «الشارب اللطيف» لم يبال باحتجاج «القط». لم يكن يرى سوى رغبته، رغبته في جسد «القط» الأبيض الوردي، كان يريد أن يدس وجهه في شعر «القط»، وأن يمس صدره، خصره، وإليته (طبعاً!). فانقض عليه مصمماً على نصحه واغتصابه، لكن «القط» قاومه بشدة، ودفعه عنه بعيداً، فانبطح «الشارب اللطيف» على وجهه. وكان الغلمان قد اجتمعوا حول الخصمين المتصارعين.

ـ لقد اعتبرني «موضوعاً» قابلاً للوطء.. ابتعد عني يا عـ... !

وجر «القط» عصاه «الشارب اللطيف» نحو زاوية أخرى، واتجه إلى النوم. وبقي الغلامان متخاصمين بعض الوقت، ثم تصالحا والآن حين كان «القط» يمر من صدفة صغيرة، كان يعطيها إلى «الشارب اللطيف».

في اليوم التالي، كان «القط» يسير في شارع المومسات، وكان شعره يلمع ببرياتين رخيص، وعقدة الرقبة معقودة حول عنقه، وهو يصفر كأنه أحد غلمان المدينة المعدودين. كانت النساء ينظرن إليه ويضحكن.

ـ أنظروا إلى هذا الديك الصغير.. عن أي شيء جاء يبحث هنا؟

لكن القط يرد على الابتسامات، ويتابع طريقه.

كان ينتظر أن تدعوه إحداهن ليمارس معها الحب. لكنه لم يكن يريد أن يجامعها لقاء نقود يدفعها لها. ليس فقط لأن ثروته لم تكن تتجاوز الألف وخمسمئة ريال، بل أيضاً لأن «فرسان الرمال» لا يحبون دفع المال للنساء. وكان لديهم الزنجيات الصغيرات في سن السادسة عشرة، اللواتي كانوا يجامعونهن على الرمال.

لم تكن هناك بين المومسات واحدة.. كن يهمسن بوجهه الصبياني. كن يرينه وسيماً في صباه، ويحببن أن يمارسن الحب معه. لكنهن لم يكن يدعونه لأن الوقت كان وقت السكر في الشرب، وفي عد... لعد. لذلك كن يكتفين بالضحك والمرح. وكن متأكدات من أنه سيصبح يوماً من الأيام أحد أولئك العوادين الذين يملأون حياة المومسات، يأخذون منهن، ويضربونهن. لكنهن يمنحونهن أيضاً كثيراً من الحب. كثيرات منهن حين لم تكن المرأة الأولى لهذا الشقي الشاب. لكن الساعة كانت العاشرة وهي ساعة الرجال الذين يدفعون المال. وكان «القط» يسير من ساحة إلى أخرى، بلا جدوى. وحينئذ سمع «دالها» القادمة من الشارع، غارقة في معطف من الفرو، بأربعة

من هذه البيئة الصيفية. وتجاوزته دون أن تراه تقريباً. كانت امرأة في حوالي الخامسة والثلاثين، ملتفة الجسم بل بدينة، وذات وجه شهواني جداً. وسرعان ما اشتهاها «القط» فتبعها، ورآها تدخل إلى بيتها دون أن تلتفت إليه. وبعد لحظة، ظهرت من نافذة. وصعد «القط» في الشارع، ثم هبط عائداً، لكنها لم تمنحه أية نظرة. ثم مر رجل عجوز، ودعته. فصعد إلى بيتها. وواصل «القط» الانتظار، لكنها، حتى بعد خروج العجوز مسرعاً، ساعياً لأن لا يراه أحد، لم تعد إلى النافذة.

وبعد ليال، كان «القط» يعود إلى نفس المكان، في الشارع، لمجرد أن يراها فقط. والآن، أصبح كل المال الذي يحصل عليه «القط» من السرقات والاختلاس ينفقه على شراء بدلات مستعملة، لتبرز أناقته. كان ينصف بأناقة الشكيمي (لا ويانش) الكاملة. كثر في طريقة المشي، وإمالة القبعة، وربط عقدة الرقبة بصورة مهملة. منه إلى الملابس بحد ذاتها. كان «القط» يشتهي «دالها» بنفس الطريقة التي يشتهي بها الأكل حين يجوع، والنوم حين ينعس. وكان قد كف عن الاستجابة لدعوات نساء الأحياء، اللواتي بعد أن حصلن على مصروف الغد، صحن يردن لأن يمارسن الحب مع هذا الغلام الشقي مرة فقط حتى يحدثن هن. وذلك فقط بقصد الاستعلام عن حياة «دالها». على هذا النحو علم من تلك المرأة أن «لدالها» عشيقاً، وهو عازف ناي في أحد المقاهي، وكان يأخذ منها النقود التي تكسبها. وكان أيضاً يسكر في بيت عشيقته سكراً شديداً بحيث كان يفقد أصوات جميع مومسات المرسى.

كان «القط» يعود كل ليلة ... تمنحه «دالها» بداية نظرة. وهذا كان حبه.. بلا ردود. كان يمضي وقته في انتظار... حتى الساعة الحادية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، وحين كان عازف الناي يأتي، فيقبل «دالها» من ساعدها، ثم يدخل من الباب، وينسى الإضاءة. حينئذ كان «القط» يعود إلى المستودع، ولا يفكر بغير... لكنه ... عرف أن عازف الناي ... في اليوم التالي، ... ما أنه مات ... بعد كان ضعيفاً، ولكنه لن يستطيع أن يتحمل قوة «القط» الذي هو في الرابعة عشرة من العمر ... الغلام على الموسى التي كان يحملها تحت قميصه.

وفي إحدى الليالي، لم يحضر عازف الناي. وفي نفس الليلة، هطلت الأمطار على الشوارع على وجهها. كالمجنونة. وعادت في ساعة متأخرة إلى بيتها، ولم تستقبل أي رجل. ووقفت الآن في النافذة. رغم أن تصرفات الناي عشرة لمسة خفيفة بليل ... كانت قد دقت ... شاءت فتاة حلا الشارع من نافذة، ثم لم يبق أحد ما عدا «القط» في زاويته، و«دالها» التي كانت ما زالت تنتظر في النافذة. كان «القط»

نعم أن هذه الليلة هي ليلته، وأحس بالسعادة. وفقدت «دالفا» كل أمل بحضور عشيقها عارف الناي. حينئذ راح «القط» يخطر ذهاباً وإياباً في الشارع، إلى أن لاحظته المرأة، وأومأت له. فاقترب فوراً، وابتسم لها.

ـ ألست الديك الصغير الذي يمر كل مساء في زاوية الشارع؟

ـ إن الذي يمر كل مساء في زاوية الشارع هو أنا. أما قصة الديك الصغير هذه...

ابتسمت المرأة في أسى وقالت لـ «القط»:

ـ هل تريد أن تؤدي لي خدمة؟ سوف أعطيك شيئاً ما. ثم فكرت إثر ذلك، وقالت بكآبة:

ـ لا، لا بد وأنك تنتظر صديقتك، ولن تريد أن تضيع الوقت.

ـ لن أستطيع. إن التي أنتظرها لن تأتي سريعة.

ـ إذن، أريد يا غلامي الصغير أن تذهب إلى شارع روي ـ باربورا، الرقم ٣٥ تسأل عن السيد غاستون. إنه في الطبقة الأولى. قل له أنني في انتظاره.

ذهب «القط» وهو يحس بالأهمية. وفكر في نفسه بأن لا يذهب، وبأن لا يعود بعد لرؤية «دالفا»، لكنه إثر ذلك قرر أن يذهب، لكي يرى عن قرب أكبر، هذا الذي سيجاسر على التخلي عن امرأة جميلة جداً مثل «دالفا». ووصل إلى البناية (وهي عمارة سوداء، مؤلفة من عدة طبقات)، وارتقى السلم. وفي الطبقة الأولى، طلب إلى غلام كان واقفاً في الرواق أن يدله على غرفة السيد غاستون. دنا الصبي من الباب الأحمر ودق. لقد انفتح الباب. فصحبه عارف الناي، كان في لباس النوم، وفي السرير. لاحظ «القط» امرأة عارية. وكان كلاهما ثملين. وقال «القط»:

ـ أنا قادم من عند «دالفا».

قال عندئذ العاهر: أن دعني بسلام. لقد قرفت منها.

ووضع الرجل يده ممدودة على عنقه. وقالت امرأة من داخل الغرفة:

ـ من هو هذا الغلام الجميل؟

أجابها عارف الناي: ـ لا تتدخلي أنت.

ثم صفق بسرعة.

ـ إنها رسالة من تلك المومس «دالفا» المخمورة. إنها تكاد تموت لكي أعود إليها.

ضحكت المرأة ضحكة سكرى بدلال وقالت:

ـ أما أنت فلم تعد تريد الآن سوى خطيبتك الصغيرة «بيبي»، أليس كذلك؟ تعال وأعطني قبلة، أيها الملاك بدون أجنحة.

ضحك عارف الناي هو أيضاً وقال:

ـ أرأيت أيها الرجل الصغير؟ قل هذا لـ «دالفا».

ـ رأيت. في الواقع أنها (يقصد المرأة المحبلة) جلد جاف، مثل عصا يابسة. أجل يا سيدي، يا للنعت الأسود الذي التقطته، أليس كذلك، أيها الرفيق؟

ـ لا تتكلم عن خطيبتي.

أجابه عارف الناي بلهجة جديدة.

ثم سارع إلى القول:

ـ أتريد أن تشرب كأساً؟ إنه كحول قصب السكر. وهو ممتاز. دخل «القط»، وعضت المرأة التي على السرير جسدها. واستغرق عارف الناي في الضحك.

ـ إنه فرخ حمام صغير، فقط. لا تخافي.

وقال «القط»: ومع ذلك، فهذا الجلد البائس لا يغريني أبداً في الحقيقة. كلا. إنه لا يغريني إطلاقاً.

واحتسى «القط» كأس الخمرة المصنوعة من تفل قصب السكر. كان عارف الناي قد تمدد على السرير، وراح يقبل المرأة. ولم يلاحظ العشيقان أن «القط» انصرف، حاملاً محفظة المومس، التي كانت موضوعة على الكرسي، فوق الملابس. وفي الشارع، أحصى «القط» ٦٨ ألف رييس. وضع النقود في جيوبه وألقى بالمحفظة عن الدرج. ومضى وهو يصفر نحو بيت «دالفا».

كانت «دالفا» تنتظره في النافذة. وثبت «القط» بصره عليها.

ـ لقد جئت.

ودخل دون أن ينتظر الجواب. ومن الرواق، سألته «دالفا»:

ـ ماذا قال؟

ـ سأقول لك في الغرفة. دليني على غرفتك.

دخلا إلى الغرفة. كان أول شيء رآه «القط» هو صورة فوتوغرافية لغاستون وهو يعزف على الناي، ويرتدي ثوب سموكنغ. وجلس «القط» على السرير، وراح ينظر إلى صورة غاستون. كانت «دالفا» تحدق النظر إليه، مذهولة، واستطاعت بصعوبة أن تسأله مجدداً.

ـ ماذا قال؟

أجاب « القط »

- اجلسي هنا وأشار الى السرير

وهمست قائلة هذا سريرك الصغير

- اسمعي، يا أرنبي الصغير لقد أهملك وتعلق بامرأة أخرى التريس؟ لكنني سأبقى لاحقاً معاً ثم سحبت ريش المرمس المحور ودس يده في جيبه، وأخرج النقود

- سوف نقتسم هذه النقود

ها هي مع مرة أخرى، أليس كذلك؟ لكن سيدي بوتقيم سيجعلها مشلولين كليهما، إن قديسي هو سيدي بوتقيم انه سيدي

واتجهت نحو صورة القديس، وسحبت اسمه، وعادت

- سقط سعودك لقد كسبته عن حق

وأردف « القط » قائلاً اجلسي هنا وعانقها، وألقاها على السرير. ثم راحت تئن من شدة، وتحت وقع الصفعات التي كان يسددها إليها، قالت هامسة

- هذا الديك الصغير هو رجل حقاً

نهض « القط » وسوى سرواله، واتجه نحو الموضع الذي فيه صورة غاستون عارف السي، ومرقها

- سوف التقط صورة لي، لكي تضعيها هنا، مكان صورة غاستون. راحت المرأة تضحك، وقالت

- تعالى الى هنا، يا أرنبي السكري ما لك من شقي، ستكون لي. سوف أعلمك اشياء كثيرة، يا ذئبي الصغير

وفتحت باب الغرفة وخلع « القط » ملابسه

* * *

وهكذا كان « القط » يذهب كل مساء عند منتصف الليل، ولا ينام في المستودع وكان لا يعود إلا في صباح اليوم التالي، للذهاب مع صحبه الآخرين للقيام بمغامرات النهار

اقترب « دو الرجل الرخوة » وقال مرحاً

- ألا سوف تريننا الحريم، أليس كذلك؟

- هذا لا يعنيك

كان « القط » يدخن سيجاراً

- هل تريد أن تأتي لترى ما إذا كان يمكن أن تقوم بضربة؟ يا لك من شخص خائب!

- إنني لا أريد تجرب الحلوى إنني أعرف أين أعثر على الاشياء ذات القيمة

لكن « القط » لم يكن يرغب في أن يدردش، ونام « دو الرجل الرخوة » حوله في أرجاء المستودع

... « دو الرجل الرخوة » من جديد وترك الوقت يمر ورأى « القط » يخرج حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف وابتسم لأنه غسل وجهه، ودهن شعره بالبريانتين، وصار يتمشى مشية مرتعشة التي يسير بها الاشقياء والبحارة وأثر ذلك، ظل « دو الرجل الرخوة » وقتاً طويلاً ينظر إلى الاولاد النائمين كان هناك حوالي خمسين ولداً، بدون آباء ولا أمهات وبدون أسياد عليهم ولم يكن لديهم حرية عدا حرية التسكع في الشوارع وكانوا يحشرون جماعة نهبة دائماً ويعثرون على ما يأكلون وعلى ما يلبسون، سواء بحمل حقيبة، أو باختلاس محافظ وقبعات، أو بتهديد الناس أو أحياناً باستجداء الصدقة وكانت الجماعة تضم ما يزيد عن مئة ولد، ذلك لأن كثيرين منهم لم يكونوا ينامون في المستودع، بل كانوا ينتشرون تحت ابواب بعض البيوت، وتحت الجسور، وفي الزوارق المقلوبة على رمال مرفأ الخشب، ولم يكن أحد منهم يشكو وأحياناً كان يموت واحد منهم بمرض لم يعرف علاجه احد وحين كان يأتي الأب جوزيه بيدرو أو الماي دي سانتو دون أنيها، أو أنصاف المحبوبين من الله الطيبين. كان المريض يحصل على دواء بيد أن تلك الحال لم يكن من شأنها أن تولد لدى بعض البيئة كان « دو الرجل الرخوة » يفكر فكان يرى أن هذه الحرية صغيرة جداً مقابل بؤس هذه الحياة

حين سمع حركة، التفت إلى وسط المبنى، كان ينهض شخص ما وعرف « دو الرجل الرخوة » فيه الزنجي الصغير بارندادو، الذي كان سحبه عصى جدارة نحو الرمال، خارج المستودع ووصل « دو الرجل الرخوة » أن الصبي الزنجي سوف يجيء شيئاً ما، مرفه، ولم يكن يريد أن يضيع صحبه عليه وكان هذا حرية ضد قوانين العصابة مشى « دو الرجل الرخوة » ... وهو يشق طريقه بين الصبيان النائمين كان الزنجي الصغير قد ... الباب ... يدور حول المبنى من ناحية ... هناك في لاعين، كان المساء ... ولا أحد « دو الرجل الرخوة » أن الصبي الزنجي كان يتجه نحو زاوية المستودع الأخرى، هناك حيث كان الرمل اكثر نعومة ... في الاتجاه المعاكس ووصل في الوقت المناسب ... يصطدم بشخص ... وقد عرفه على الفور كان هو ... أحد أفراد العصابة، وعمره ١٢ عاماً، وهو ولد ... و... واستطاع « دو الرجل

الرخوة» أن يلتقط بعض العبارات. كان أحدهما يقول: «يا غلامي الصغير، يا غلامي الصغير». تراجع «ذو الرجل الرخوة»، وازداد قلقه. كان الجميع يستمعون إلى المداعبة، وشيئاً غريباً عن هذه الحياة. «الأستاذ» في كتبه التي كان يقرأها طوال الليل، و«القط» في سرير امرأة عاهرة تشفق عليه، و«سكر الشعير» في الصلاة التي كانت تملأ شكله وهيئته، و«براندا» و«المبروك» في الحب، على رمل الساحل. وأحس «ذو الرجل الرخوة» بأن القلق يستولي عليه، وأنه لا يستطيع أن ينام. فلو نام، فإن جميع كوابيس الماضي ستعود إليه لتملأ نفسه رعباً. كان يتمنى بشدة أن يظهر شخص ما، يستطيع هو، أي «ذو الرجل الرخوة»، أن يعذبه بسخريته منه. وكان يتمنى أن يخوض شجاراً. وفكر لحظة في أن يشعل عود ثقاب على ساق أحد الصبيان الراقدين. لكنه حين نظر إلى باب المستودع، لم يعد يشعر إلا بهمّ وبرغبة تجذبه في الفرار. وخرج راكضاً عبر الرمال، يركض كيفما اتفق، هارباً من قلقه. وانتبه بدرو بالا لصيحة قريبة جداً منه. ورأى ولداً ينهض ويقترب باحتراس من الزاوية التي كان يرقد فيها «سكر الشعير». وفي نصف الإغماءة الذي كان فيه، حسب بدرو بالا أن الأمر يتعلق بحالة لواط. وظل منتبهاً لكي يطرد الغلام المستسلم للواط من العصابة، لأن أحد قوانين هذه العصابة كان عدم القبول أبداً بوجود لواطي سلبي في صفوف الجماعة. لكنه استيقظ تماماً، وسرعان ما تذكر أن هذا مستحيل، ذلك لأن «سكر الشعير» لم يكن من هؤلاء. إذن، لا بد أن المسألة تتعلق بسرقة. وفعلاً كان الولد قد فتح حقيبة «سكر الشعير». فانقض بدرو بالا عليه. كان الصراع سريعاً. استيقظ «سكر الشعير» لكن الآخرين كانوا نائمين.

- هل تعرف ما يعد صاحب لك غدراً؟

ظل الآخر صامتاً، وهو يحك ذقنه المجروحة. تابع بدرو بالا كلامه قائلاً:

- غداً سوف تنصرف من هنا... لم أعد أريدك معنا. انصرف مع صبيان ايركيبل، الذين يقضون الوقت يسرق بعضهم البعض الآخر.

- كنت أريد فقط أن أرى...

- ماذا كنت تريد أن ترى بيديك... ؟

أقسم أنني كنت أريد فقط رؤية هذه المدالية التي لديه.

- رتب قصتك كما ينبغي، وإلا أنزلت بك عقاباً شديداً.

وتدخل «سكر الشعير»:

- دعه يا بدرو. فكر تماماً أنه كان يريد فقط أن يرى مداليتي. إنها مدالية

أعطاني إياها الأب جوزيه.

- نعم، هذه هي الحقيقة، كنت أريد أن أراها فقط.

لكنه كان يرتعش من الخوف. كان يعرف أن حالة مطرود من بين فرسان الرمال تصبح صعبة. فهو إما أن يدخل في عصابة ايركيبل التي تقضي أوقاتها في السجون، أو أنه ينتهي به الأمر إلى دخول الإصلاحية.

تولى «سكر الشعير» الدفاع عنه مجدداً، وعاد بيدرو بالا إلى قرب الأستاذ. وحين نام الصبي، وصوته ما زال مرتجفاً:

- سأقول لك كل شيء لتعرف، إنها فتاة صغيرة رأيتها اليوم. كانت في مدينة «ماي». وكنت قد دخلت إلى منزلهم لأسرق صدرة، حين وصلت وسألتني عما أريد. حينئذ رحنا ندردش. وقلت لها إنني في الغد سأحضر لها هدية. لأنها كانت لطيفة، لطيفة جداً معي. هل فهمت؟

والآن أخذ يصيح بشدة، حتى ليظن أنه مسعور.

ناول «سكر الشعير» المدالية التي أعطاها له الأب جوزيه، وراح يتأملها بإعجاب وفخامة، مدها نحو الغلام الصغير.

- خذ أعطها لها. ولكن لا تقل شيئاً لبيدرو بالا.

دخل «الكوخ الأساسي» إلى المستودع في حين كان الفجر يشرق، ونور أبيض يجتاح أعماق السماء. وكان شعر خلامي سيرتاو[5] منفوشاً نحو الأعلى. وكان يرتدي حذاء رياضياً للرياضة، مثله يوم نزل من «الكاتنغا»[6]. وينعكس وجهه القاتم في ضوء الشمس. وخطا فوق جسم الزنجي جواو غراندي، وصعد إلى أبعد، وأمر رجله فوقه كي يحمل صحيفة مشدودة إلى صدره. وشمل القاعة كلها بنظرة، كأنه كان يبحث عن شخص ما. وما أن تبين الموضع الذي يوجد فيه «الأستاذ» حتى أخذ الصحيفة بين يديه الخشنتين الكبيرتين. ودون أن يولي اهتماماً بموقفه غير الملائم، اتجه نحوه صائحاً:

يا «أستاذ»، يا «أستاذ»!

- ماذا هناك؟

كان الأستاذ شبه نائم.

أريد شيئاً ما...

(٥) سيرتاو: داخل البرازيل

(٦) «الكاتنغا»: منطقة صحراوية في «سيرتاو» (داخل البرازيل) مغطاة بالصبار

حسن « الاستاذ » وكان وجه « الكوع اليابس » القاتم غير مرئي تقريباً في الظلام.

ـ أهذا انت ايها « الكوع اليابس »؟ ماذا تريد؟

ـ أريد أن تقرأ لي أخبار لامبياو [2] الواردة في « الكوتيديان » (الجريدة اليومية) ويوجد صورة له أيضاً.

ـ دع الصحيفة لكي أقرأها غداً.

ـ اقرأها اليوم، وأنا سوف اعلمك غداً كيف تحاكي زقزقة الكناري تماماً.

بحث « الاستاذ » عن شمعة، واشعلها، وراح يقرأ مقال الصحيفة. لقد دخل لامبياو الى احدى قرى ولاية باهيا، وقتل ثمانية جنود، واغتصب عدة فتيات، ونهب خزائن المحافظة. وأضاء وجه « الكوع اليابس » القاتم وانفتح بابتسامة فمه المطبق. كان سعيداً حين ترك « الاستاذ » لدى اطفائه الشمعة متوجهاً نحو زاويته. وأخذ معه الصحيفة لكي يقتطع صورة عصابة لامبياو. وفي روحه كان يتصاعد نهار ربيعي.

* * *

(٢) لامبياو قاطع طرق برازيلي شهير (ملاحظة من المترجم)

باب البحر لابورتا دو مار

انتظروا رحيل الشرطي. وترقب هذا متفحصاً السماء، باحثاً بنظره في الشارع المقفر، واختفى الترام عند المنعطف. كان هو، في هذه الليلة، آخر ترام على خط بروتاس. اشعل الشرطي سيجارة. وبسبب الريح التي كانت تهب، اشعل هذا ثلاثة عيدان. ثم رفع ياقة معطفه ليقي جسمه من البرد الرطب الذي كانت الريح تحمله من المزارع التي تتأرجح فيها أشجار المانغا والزعرور الأميركي. انتظر الغلمان الثلاثة رحيل الشرطي لكي ينتقلوا إلى الجانب الآخر من الشارع وليدخلوا إلى الدرب المسدود غير المبلط. ولم يستطع « حبيب الله الطيب » الحضور. لقد قضى طوال فترة بعد الظهر في « بورتا دي مار » ينتظر الرجل الذي لم يحضر. ولو حضر هذا الرجل، لكان ذلك سهلاً، ذلك لأنه مع « حبيب الله الطيب » ـ الذي كان يدين له بأشياء كثيرة ـ لم يكن بحاجة لسقّاش. لكن الرجل لم يأت؟ كان الأمر كذباً بالتأكيد. وعلى « حبيب الله الطيب » أن يعود الى السفر هذه الليلة بالذات. كان ذاهباً إلى باماريكا، منذ فترة بعد الظهر، نحو ارض صغيرة كانت موجودة في عمق « بورتا دي مار » (باب البحر). كان « القط » يهيء نفسه ليصبح بعد حين مصارعاً قادراً على أن يجابه « حبيب الله الطيب » بالذات.

إن بيدرو بالا، هو أيضاً كان يكشف عن استعدادات كثيرة. رأس الثلاثة رشاقة كان جواو غراندي، لكنه كان ممتازاً في معركة يستطيع أن يستخدم فيها قوته البدنية الخارقة. وحتى في جسمه النحيل، كان على مقدرة كافية للتخلص من خصم أقوى بأشواط منه. وحين تعبوا، دخلوا الى الحانة وطلبوا أربعة كؤوس من النبيذ. واخرج « القط » ورقة نقد من جيبه، وهو ورق جعل مدهش، دون أوراق حشيشة. كان « حبيب الله الطيب » يؤكد بأن الرجل سيحضر. إن الرفيق الذي ابلغه النبأ ـ أي « لحبيب الله الطيب » ـ كان شخصاً موثوقاً به. كانت هذه الصفقة ستعود بمكاسب كبيرة، و « حبيب الله الطيب » كان ينقص أن يعده « فرسان الرمال » أصحابه. بدين منهم ينقص من عزان عرفاً. كان يعرف أن « فرسان الرمال » هم ينقص من رجال كثيرين

وأنهم يخفضون السعر حتماً. كان «ناب البحر» مقفراً تقريباً في هذه الساعة. كان هناك فقط بحاران محتسيان للبيرة في داخل الحانة، وهما يدردشان. وضع «القط» ورق لعب على الطاولة وقال:

- من الذي يشاركني في جولة؟

تناول «حبيب الله الطيب» ورق اللعب وقال: إنه أكثر من مغشوش بعلامات خاصة، يا صديقي «القط». إنها لعبة مغشوشة تماماً، ومفضوحة تماماً أيضاً.

- إذا كان لديك ورق غيره، فهذا سيان بالنسبة لي.

- كلا. فلنلعب بهذا الورق.

بدأوا باللعب. كشف «القط» عن ورقتين على الطاولة، وأخذ الآخرون يراهنون على واحدة منهما، وكان البنك (مال المقامرة) مع الثانية. نادي... كسب بيدرو بالا، و«حبيب الله الطيب»، ولم يشترك في اللعب جواو غراندي (كان يعرف جيداً تلاعب «القط» بالورق)، كان يكتفي بالفرجة، ضاحكاً بكل أسنانه البيضاء حين كان «حبيب الله الطيب» يقول إن الحظ يحالفه هذا النهار لأنه عيد كاسامو شفيعه. كان يعرف من جهة أن الحظ لا يبتسم إلا في البداية، وأنه حين سيبدأ «القط» بالكسب، فلن يتوقف بعد ذلك أبداً. وفي فترة معينة، بدأ «القط» يكسب. وعند الانتصار الأول، قال بصوت حزين بعض الشيء:

- لقد حان الحين تماماً. إن معي أوراقاً ممتازة وحق الشيطان!

وسّع جواو غراندي ابتسامته أكثر أيضاً. وكسب «القط» كذلك. نهض بيدرو بالا ووضع في جيبه النقود التي كسبها. ونظر «القط» إليه في قلق:

ألن تصنع شيئاً أيضاً؟

- الآن لا. أنا ذاهب لأبول.

واتجه نحو عمق الحانة. واستمر «حبيب الله الطيب» يخسر. كان جواو غراندي يضحك، وكان لاعب الكافاكينيو [illegible]. وعاد بيدرو بالا، لكنه لم يعد إلى اللعب. كان يضحك مع جواو غراندي. وتخلى «حبيب الله الطيب» عن كل ما كسب، وقال جواو غراندي من بين أسنانه:

- سوف يمس الرأسمال.

ولاحظ «القط» قائلاً: ما زلت أخسر. ولاحظ عودة بيدرو فقال له:

- ألم تعد تقامر بشيء؟ أوَلا تراهن على «الست السابق»؟

- لقد قرفت من المقامرة.

وغمز بيدرو بالا «القط» كأنه يطلب منه أن يكتفي بـ«حبيب الله الطيب». تخلى «حبيب الله الطيب» عن خمسة آلاف «ريس» كصندوق. ولم يكن قد كسب شيئاً من بين أشواط الجولات الأخيرة. وبدأ يخسر. ونشر «القط» الأوراق على الطاولة، وبدا متمكناً وسعيداً. وسأل:

- من يلعب؟

لم يجب أحد. ولا حتى «حبيب الله الطيب» الذي كان يراقب الورق بعين حمراء. وسأل «القط»:

- هل تعتقد أنه يوجد غش؟ تستطيع أن تنظر إلى الورق بصورة نزيهة.

انفجر جواو غراندي في إحدى ضحكاته الصاخبة. وشاركه في الضحك بيدرو بالا و«حبيب الله الطيب». وألقى «القط» نظرة مسعورة نحو جواو غراندي.

- هذا الزنجي يعتقد نفسه مثل [illegible] فلا ترى أذن.

لكنه لم يكمل عبارته، لأن البحارين اللذين كانا يراقبان اللعب منذ حين اقتربا من الخصمين، وهمس الأصغر، الذي كان ثملاً، لـ«حبيب الله الطيب»:

- هل نستطيع الدخول في هذه اللعبة الصغيرة؟

أشار «حبيب الله الطيب» إلى «القط» قائلاً: الصندوق هو مع هذا الفتى.

نظر البحاران في الحال إلى الفتى بحذر وريبة. لكن أصغرهما نكز الآخر بكوعه هامساً بصوت [illegible] في أذنه. وفرح «القط» في داخله، لأنه كان يعلم أن الآخر يقترب منه من أجل الاستيلاء على نقود هذا الولد. وجلس البحاران معاً إلى الطاولة، ودهش «حبيب الله الطيب» لرؤية بيدرو بالا يجلس هو أيضاً إلى الطاولة. ومن جهة أخرى، فإن جواو غراندي ليس فقط لم يندهش، بل إنه جلس إلى الطاولة هو أيضاً. كان يعلم أنه يجب مواجهة البحارين، وأن من الضروري لأجل هذا أن يخسر فتيان العصابة هم أيضاً [illegible]، كما حدث ذلك لـ«حبيب الله الطيب». لكن [illegible] الحظ تحول بسرعة [illegible] «القط» هو وحده الرابح. وكان بيدرو بالا يضحك ضحكات [illegible]

- هذا «القط» حين يحالفه الحظ، تصعب مواجهته.

ورد جواو غراندي: وكذلك حين يأخذ في الخسارة طوال الليل.

[illegible] أوحى بالكثير [illegible] إلى البحارين حول نزاهة اللعب، وإمكانات الحظ في [illegible] اللعب والخسارة. وكان أصغرهما يقول فقط: لا بد وأن يدور الحظ!

كان الآخر، وهو ذو شارب صغير، يلعب في صمت، وكان في كل مرة يزيد

رهانه. وبيدرو بالا، هو أيضاً كان يزيد قيمة رهاناته. وفي لحظة معينة، التفت الرجل ذو الشارب الصغير نحو «القط»:

- هل يسير الصندوق بخمسة آلاف؟

حك «القط» شعره المدهون ببريانتين رخيص، مظهراً عدم تصميم كان رفاقه يفهمون بأنه مجرد شيء شكلي.

- اتفقنا. أنا أتبع. لا شيء إلا لكي أتيح لك تعويض خسارتك.

راهن البحار ذو الشارب الصغير بخمسة آلاف «ريس». وقدم الصغير ثلاثة آلاف. وراهن كل منهم على «آس» مقابل خادم الصندوق. كذلك راهن على الآس، بيدرو بالا وجواو غرانادي. وأخذ «القط» يقلب الأوراق. كانت الورقة الأولى سبعة. كان البحار الصغير يدق بأصابعه على الطاولة، والآخر يشد شاربه الصغير. ثم جاءت ورقة «شايب»، وقال البحار الأصغر:

الآن، آس. شايب، بعد واحد.

وراح يدق الطاولة بأصابعه.

ولكن جاءت سبعة. ثم عشرة. وحينئذ جاء خادم. ربح «القط» الطاولة، في حين كان بيدرو بالا يظهر هيئة سأم عميق، وقال:

- غداً، حين سوف يتولى عنك النحس، وسوء الحظ، سترى إذا كنت لن أغلبك.

وعرف البحار الأصغر بأنه خسر كل شيء. وحك البحار الآخر ذو الشارب الصغير جيوبه.

- لم يعد لدي سوى قطعة ريبست لأدفع ثمن البيرة. الغلام لاعب ماهر.

نهض البحاران، وودعا أفراد العصابة، ودفعا ثمن البيرة، التي شرباها على الطاولة الأخرى. ودعاهما «القط» للعودة في يوم آخر. فأجاب الأصغر بأن سفينتهما ستبحر هذه الليلة بالذات نحو كاراكاس. فسيعودان بعد الأيام فقط. وانصرفا يسند أحدهما خصر الآخر، وهما يعلقان على النحس الذي أصابهما.

وقدر «القط» مبلغ الكسب. وبدون حساب النقود التي خسرها بيدرو بالا وجواو غرانادي، بقي هناك ربح يبلغ ٣٨ ألف «ريس». وأعاد «القط» إلى بيدرو بالا نقوده، ثم إلى جواو غرانادي، وفكر برهة، ودس يده في جيبه، وأخرج الخمسة آلاف «ريس» التي كان «حبيب الله الطيب» قد خسرها قبلاً.

- خذ يا أبله، عندك عشق. أنا لا أريد أخذ نقودك.

قبل «حبيب الله الطيب» الورقة المالية بسرور، وربت على ظهر «القط»:

- سوف تذهب إلى بعيد، يا صديقي. وستستطيع أن تكسب ثروة من ألعاب الغش هذه.

لكن الشمس كانت قد غربت، والرجل المنتظر لم يأت. وطلبوا كأساً أخرى من النبيذ. ومع الغروب، ازدادت الريح القادمة من البحر شدة. وبدأ «حبيب الله الطيب» يفقد صبره. وكان يدخن سيجارة وراء سيجارة. وكان بيدرو بالا يرصد الباب. وقسم «القط» الثمانية والثلاثين ألف «ريس» على الثلاثة، وسأل «جواو غرانادي»:

كيف سيتدبر «ذو الرجل العرجاء» أمره في سرقة القبعات؟

لم يجب أحد. كانوا ينتظرون الرجل والآن أصبح لديهم انطباع بأنه لن يأتي. إن السر لم يكن سوى شيء في الحقيقة. ولم يكونوا يسمعون الأغنية القادمة من البحر. كان «باب البحر» (بورت دي مر) مقفراً، ولأن مصباحاً معلقاً على طاولته. ستكون القاعة سوف تمتلئ بعد قليل، وحينئذ لن يكون ممكناً أي اتفاق مع الرجل وسط هذا الجو الصاخب. وهو لن يقبل أية محادثة هنا، في هذه القاعة التي تغص بالزبائن، فيمكن أن يتعرف إليه الناس، وهو لم يكن يريد ذلك. كما أن «فرسان الرمل» هم أيضاً لا يريدون. وفي الواقع، كان «القط» لا يعرف حقيقة المسألة، كما لم يكن يعرفها «بيدرو بالا» و«جواو غرانادي». كانا يعرفان فقط ما يعرفه «حبيب الله الطيب» الذي عرضت عليه الصفقة التي قبلها من أجل بيدرو بالا و«فرسان الرمل». وعلى كل حال، فهو نفسه لم يكن يملك سوى معلومات غامضة. وكان ينبغي أن يطلعهم الرجل على معلومات. وقد حدد لهم موعداً في فترة بعد الظهر، في «باب البحر». لكنه حتى الساعة السادسة لم يظهر له أثر. وقد جاء بدلاً عنه الرجل الذي تحدث إلى «حبيب الله الطيب». وقد وصل بالضبط حين كانت العصابة تغادر. وقد أوضح هذا أن الرجل لم يستطع المجيء، لكنه سينتظر «حبيب الله الطيب» في المساء، في الشارع حيث يسكن. وسوف يأتي حوالى الساعة الواحدة فجراً. وأعلن «حبيب الله الطيب» أنه لا يستطيع الذهاب إلى هناك، لكنه يسلم المسألة لـ«فرسان الرمال» ويضعها في أيديهم. وتفحص الوسيط الأولاد بحذر، وسأله «حبيب الله الطيب»:

- ألم يسبق لك أن سمعت الحديث عن «فرسان الرمل»؟

- بلى. قبلاً، ولكن...

- على كل حال، إنهم هم الذين سيتولون المسألة. إذن...

بدا الوسيط أنه يوافق. واتفقوا على اللقاء في الساعة الواحدة فجراً، وافترقوا. وعاد «حبيب الله الطيب» إلى سفينته، و«فرسان الرمال» ذهبوا إلى المستودع، واختفى الوسيط في أرصفة الميناء. ولم يكن «ذو الرجل الرخوة» قد عاد بعد. ولم يكن هناك أحد في المستودع. لا بد وأنهم جميعاً منتشرين في شوارع المدينة، بحثاً عن عشاء. وخرج ثلاثة في ذلك الحين، وذهبوا لتناول طعامهم في رستوران رخيص قائم في السوق، وعند خروج المستودع، أراد «القط» المبتهج جداً نتيجة اللعب، أن يفركش بدرو بالا، لكن هذا تلافاه ووقع «القط» على الأرض.

- إني مدرب، أيها الأحمق الكبير.

ودخلوا إلى الرستوران محدثين ضجة، واقترب منهم في الحال عجوز كان هو النادل. كان يعرف أن «فرسان الرمال» لا يحبون الدفع، وأن هذا الشاب المشطوب الوجه، كان أخطر الجميع. ومع أنه كان هناك أشخاص كثيرون في الرستوران، لكن العجوز قال لهم:

- انتهى كل شيء. لم يعد لدينا طعام.

- غير هذه الاسطوانة يا عم، نحن نريد أن نأكل.

وضرب جون غراندي على الطاولة بقبضته وقال:

- وإلا فسنقلب هذه الموائد كلها رأساً على عقب. حدق النادل العجوز فيهم، متردداً. وحينئذ رن «القط» بالنقود على الطاولة.

- اليوم، سنعطي نقوداً.

كانت هذه حجة حاسمة. وبدأ النادل يحضر الأطعمة: طبق من الساراباتيل[8] ثم طبق من «الفيجوادا»[9] و«القط» هو الذي دفع ثمن الطعام. وإثر ذلك، اقترح بدرو بالا الذهاب نحو بروتاس، التي كانت تفصلها عنهم طريق طويلة، نظراً لأنهم سيسيرون نحوها سيراً على الأقدام.

وقال بدرو بالا: لا حاجة لركوب الترام. والأفضل أن لا يعرف أحد أننا ذهبنا إلى هناك.

حينئذ قال «القط» إنه سيأتي فيما بعد. وإنه سيلتقيهم هناك. كان لديه ما يفعله قبل ذلك. كان يريد أن يبلغ «دالفا» بأنه لن يحضر إليها هذه الليلة.

(٨) ساراباتيل: أكلة مقبلات برازيلية مصنوعة من كروش الخنزير وطحاله

(٩) الفاجوادا: وجبة وطنية برازيلية مصنوعة من الفاصولياء السوداء، بشحم الخنزير واللحم

والآن وصلوا إلى هناك، إلى محطة «بيناغيرس»، منتظرين رحيل الشرطي. كانوا مختبئين في ظل بوابة كبيرة، ويلزمون الصمت. كانوا يسمعون صوت طيران الخفافيش التي كانت تهاجم على الأشجار حبات الزعرور الأميركي الناضجة. وفي النهاية غادر الشرطي. وبقوا في وضع المترقب حتى اختفى شبحه عند المنعطف. وحينئذ اجتازوا هذا المنعطف، ودخلوا إلى جادة المزارع، حيث اختبأوا تحت سقيفة.

لم يتأخر الرجل البتة. وقد قفز من سيارة تكسي عند زاوية الشارع، ودفع أجرة الركوب، وجاء، صاعداً الجادة. كان يسمع فقط صوت حذائه، وحفيف الأوراق التي يثيرها الهواء على الأشجار. وحين اقترب منهم كفاية، خرج بيدرو بالا من تحت السقيفة. وأسرع الآخرون للحاق به، وأحاطوه، مثل حراس أقوياء، يعرفون مهمتهم، واقترب الرجل من الجدار، المحاذي لخط سيره. واتجه بيدرو نحوه. وحين وصل إلى مستواه، توقف.

- هل يمكن أن تشعل لي هذه السيجارة أيها السيد؟

كان في يد بيدرو بالا سيجارة مطفأة. لم يجب الرجل بشيء. بل أخرج علبة الثقاب، وناولها للفتى. وأشعل بيدرو سيجارته، وأثناء إشعالها، حدق في الرجل ثم سأله وهو يعيد إليه العلبة:

- ألست أنت المسمى جوين؟

- وسأل الرجل: لماذا؟

إن «حبيب الله الطيب» هو الذي أرسلنا. واقترب جواو غراندي و«القط»، وحدق الرجل فيهم مندهلاً.

- إنهم مجرد أطفال. والعمل الذي أنا في سبيله، ليس عملاً لأطفال.

- قل لنا ما هو؟ نحن نعرف أن نقوم بعمل مناسب، هكذا رد بيدرو بالا، في حين كان زملاؤه يقتربون.

- ولكن ماذا لو كانت المسألة صعبة بحيث أنه حتى الرجال...

ووضع الرجل يده على فمه مثل شخص قال كل شيء لديه، بل وأكثر.

نحن نعرف كيف نحتفظ بالسر. كما لو أنه كان في حربية مولادية. و«فرسان الرمال» يفعلون دائماً عملاً متقناً.

- «فرسان الرمال»؟ هذه العصابة التي تتحدث عنها الصحف؟ أولاد مشردون؟ أهم أنتم؟

- أجل، نحن. ونحن من الذين يقودون أولئك الأولاد.

بدا الرجل كأنه يفكر، وأخيراً قرر موقفاً، وقال: كنت أفضل أن أكلف رجالاً بهذا العمل، ولكن نظراً لأن الأمر يجب أن يجري في هذه الليلة بالذات، فالوسيلة...

- سوف ترى كيف أننا نحسن العمل. لا تقلق.

- تعالوا معي. ولكن دعوني أتقدمكم، واتبعوني ولكن على بعد خطوات مني.

طاع الأولاد. وتوقف الرجل المجهول عند حاجز السياج، وهدأ برهة ومسح السلاح، جاء كلب... يلحس يديه. وأدخل الرجل ثلاثتهم معاً، واجتازوا معه طريقاً تحف به الأشجار ثم فتح باب المنزل. ودخلوا إلى غرفة صغيرة، ووضع الرجل معطفه وقبعته على كرسي، ثم جلس. وظل الفتيان الثلاثة واقفين. وأشار الرجل إليهم بالجلوس، وبادىء بدء راحوا ينظرون في حذر إلى الفوتيلات الواسعة المريحة. ذلك على الأخص، كانت حالة بيدرو وجواو غراندي، ذلك لأن «القط» كان قد جلس على أحد هذه الفوتيلات جلسة مريحة، وإن كان قد حافظ على عبوسه. وبعد إشارة جديدة من الرجل، جلس بيدرو وغراندي، رغم أن جواو غراندي تخذ جلسة له على حافة المقعد، وكأنه كان يخشى توسيخه. كانت هيئة الرجل مرحة، مداعبة ومحتاة بهم، ناظراً إلى بيدرو، الذي أحس أي الرجل، أنه الزعيم (أي بيدرو).

- إن ما سوف تفعلونه هو صعب وسهل في وقت معاً. والآن، ما يلزم، هو أنه لا يجب أن يعرف أحد بما ستفعلون. لا أحد بالمرة. أجاب بيدرو بالا: كن مطمئناً نحن نعرف ما نعمل.

أخرج الرجل ساعته من جيبه، وقال: الساعة الآن الواحدة والربع. إنه لا يعود إلا في الساعة الثانية والنصف.

كان ما يزال ينظر إلى «فرسان الرمال» متردداً.

وباغته بيدرو قائلاً:

- إذن، لم يعد هناك وقت طويل. فإذا أردت أن نعمل، فيجب أن نبدأ الآن، فوراً.

حينئذ صمم الرجل.

- بعد شارعين من هذا الشارع، تبدو الزرعة الأخيرة على اليمين. يجب أن تحتسوا الكلب، الذي لا بد وأنه مطلق السراح الآن. وهو كلب شرير. وقاطعه جواو غراندي:

- هل لديك هنا قطعة لحم؟

- لماذا؟

- لأجل الكلب.

- سوف أرى.

كان ينظر إلى الأولاد. كان يتساءل ما إذا كان يستطيع أن يعتمد عليهم.

- سوف تدخلون من العمق، وقرب المطبخ، في الجهة الواقعة خارج المنزل، يوجد غرفة فوق المرآب. إنها غرفة الخادم، الذي يجب أن يكون الآن في المنزل، منتظراً عودة سيده. وسوف تدخلون إلى غرفة الخادم، وعليكم أن تبحثوا عن رزمة كهذه، كهذه تماماً.

واتجه نحو جيب معطفه، وأخرج منه رزمة صغيرة مربوطة بشريط وردي.

- إنها مشابهة تماماً لهذه. ولا أدري إن كانت هذه الرزمة ما زالت في المنزل. ويمكن أن تكون في جيب الخادم. فإذا كان الأمر كذلك، لن يعود بالإمكان أن نفعل شيئاً.

وبدا أن يأساً مباغتاً قد ألم به.

- لو أمكنني أن أذهب بعد ظهر هذا اليوم... إذن، بالتأكيد، كنت سأجد الرزمة في الغرفة. أما الآن فمن يدري؟

وغطى وجهه بيديه.

وقال بيدرو: حتى ولو كانت الرزمة مع الخادم، فنحن نستطيع أخذها.

- كلا. ومن المهم جداً أن لا يعرف أحد أن الرزمة قد سرقت. إن ما سوف تفعلونه، هو إبدال رزمة بأخرى، إذا كانت الرزمة المطلوبة في الغرفة.

- وإذا كانت مع الخادم؟

- حينئذ...

وعاد وجه الرجل مجدداً للاكتئاب. وسمع جواو غراندي نامة يشبه البكاء، ولكن ربما كان هذا وهماً أم بجواو غراندي، الذي كان أحياناً يسمع ويرى أشياء لا يسمع بها ولا يراها أحد. كان الرجل كادماً جداً.

- إذن، يجب تغيير الرزمة بنفس الطريقة. ويمكنك أن تطمئن. إنك لا تعرف «فرسان الرمال».

بالرغم من يأسه، ابتسم الرجل من مرجلة بيدرو بالا.

- إذن، باستطاعتكم الذهاب، وبعد ذلك، لكن هذا يجب أن يكون قبل الساعة الثانية. عودوا إلى هنا. ولكن فقط حين يخلو الطريق تماماً. وسأنتظركم. وسوف نسوي حينئذ حساباتنا. لكن هناك شيء من واجبي أن أنبهكم إليه بإخلاص. قد كشف...

أمركم واعتقلتم، فلا تعرضوني للخطر ولن افعل شيئاً من أجلكم، لأن اسمي لا يمكن أن يظهر في كل هذه المسألة وحاولوا حينئذ اخفاء هذه الرزمة، ولا تتصلوا بي بأية حجة كانت المسألة أن نكسب أو نخسر

رد بيدرو بالا في هذه الحالة يجب تحديد الأجر مسبقاً فكم تدفع؟

ـ اني اعطي مئة ألف «بيس» ثلاثون لكل واحد منكم، وعشرة زيادة لك،

وأشار إلى بيدرو

تحرك «القط» على كرسيه فأشار له بيدرو بأن يصمت وقال للرجل سوف تدفع خمسين ألفاً لكل واحد منا، وكما يبدو لي، فإنك تظل رابحاً في هذه الصفقة وهذا يشكل مئة وخمسين ألف «بيس» وإلاّ، فلا رزمة هناك

لم يتردد الرجل البتة ونظر إلى ساعة يده، حيث يركض العقربان

ـ اتفقنا

حينئذ دفعه «القط»

ـ ليس ذلك لأننا لا نثق فيك لكن المسألة يمكن أن تفشل، وقد قلت أنت نفسك انك لن تهتم بما يمكن أن يحدث لنا.

ـ وماذا اذن؟

ـ من العدل والحالة هذه أن تعطينا سلفة كبيرة الآن

وأيد جواو غراندي «القط» بايمائة من رأسه وردد بيدرو بالا آخر كلمات الآخر

ـ هذا عدل، نعم اذ كنا لا نستطيع الاتصال بك بعد ذلك

وقال الرجل بدوره نعم هذا عدل

وأخرج من جيبه محفظة، وسحب منها ورقة مالية بمئة ألف «بيس»، وناولها لبيدرو

ـ والآن اذهبوا بسرعة لقد تأخر الوقت

وخرجوا وقال بيدرو بالا

ـ لا تهتم بعد ساعة سنعود ومعنا الرزمة

وأمام المنزل (كان الشارع خالياً تماماً؛ وفي احدى النوافذ كان هناك ضوء، وشاهدوا شبح امرأة يذهب ويجيء) وضرب الزعيم جبينه

ـ لقد نسيت قطعة اللحم لأجل الكلب

نظر بيدرو بالا إلى النافذة المضاءة

ـ الأمر سيان! كل هذا تفوح منه رائحة الخيانة ـ الزوجية من الاسف إن لشخص هناك كان «برتب» الصغيرة هنا، و الآن توجد مع الخادم رزمة الرسائل التي كان تبادلها، وهو يريد اعطاءها وهذه الرزمة يفوح منها العطر، وهذا ما يسمي أن يحس به لاخير أيضاً

وأشار إلى الاثنين بانتظاره في الجانب الآخر من الشارع، واقترب من بوابة المنزل وما أن استند اليها، حتى اقترب منه كلب كبير وهو ينبح وربط بيدرو بالا حبلاً رفيعاً بمزلاج البوابة، في حين كان الكلب يروح ويجيء، نابحاً بصوت خفيض، ثم نادى بيدرو رفيقيه

ـ أنت (واشار إلى «القط») تبقى هنا، في الشارع لاعطاء الانذار اذا داهمنا احد ما انت، غراندي فتدخل معي

وصعدا إلى ارتفاع الحاجز الصغير للجدار وشد بيدرو بالا عن المزلاج بالحبل الرفيع فانفتحت البوابة وكان «القط» قد ذهب إلى زاوية الشارع وحين رأى الكلب الباب مفتوحاً، اندفع نحو الشارع، وتأخر هناك وهو يتفحص عدة قاذورات وقفز بيدرو بالا وجواو غراندي إلى أسفل الجدار، وأقفلا البوابة لكي لا يستطيع الكلب العودة إلى المنزل، وتقدما بين الأشجار وفي نافذة المنزل المضاءة، استمر شبح امرأة يروح ويجيء وقال جواو غراندي بصوت خفيض جداً

إنني اتألم من أجلها

من لدي طلب منها أن تنام مع الآخرين؟

وقف الزنجي قرب المنزل ليبقل الانذار إلى «القط» في حالة مداهمة أحد لهم، وكان يستخدم في هذه المناسبات انواعاً خاصة من الصفير ودار بيدرو بالا حول المنزل، ووصل إلى المطبخ كان بابه مفتوحاً، كما كان مفتوحاً أيضاً باب الغرفة القائمة فوق المرآب بيد أن بيدرو فضل أن يرتقي السلم المؤدي إلى الغرفة، التي نظرة عبر باب المطبخ ورأى بيدرو فيه رجلاً فقال «لا بد أنه خادم المذكور»، هكذا فكر بيدرو، وبسرعة، ابتعد بيدرو نحو سلم المرآب وصعد على الدرجات أربعاً فأربعاً، ودخل إلى غرفة الرجل لم يكن هناك نور، وأقفل بيدرو الباب، وأشعل عود ثقاب لم يكن هناك سوى سرير، وحقيبة واطفأ عود الثقاب. لكن بيدرو كان قد وصل إلى السرير، الذي بحث فيه بكامله وإثر ذلك، نظر تحت الفراش وهنا أيضاً لم يجد شيئاً فعبر حينئذ من السرير واقترب من الحقيبة دون أن يحدث ضجة، ورفع غطاءها، وأشعل عود ثقاب امسكه بأسنانه وقام بالبحث في الثياب باحتراس، ولم يجد

شيئاً وصعق عود الثقاب، ثم تذكر أن الرجل ربما كان لا يدخن، فوضع علبة الثقاب في جيبه، واتجه نحو المشجب المثبت في الجدار. ولم يجد شيئاً في الملابس المعلقة على المشجب. وأشعل بيدرو بالا عود ثقاب أخيراً، وقام بتفتيش كل الغرفة.

ـ من المؤكد أن الرزمة هي مع الرجل. والآن سوف نتبارح.

فتح باب الغرفة ونزل على درجات السلم، ووصل إلى باب المطبخ، كان الرجل ما زال جالساً، وحينئذ، لاحظ بيدرو بالا أن الرجل كان جالساً على الرزمة بالذات. كان طرف منها يبرز تحت ساق الرجل. وحسب بيدرو أن كل شيء قد ضاع. فكيف يستطيع سحب الرزمة من تحت هذه الساق؟ وابتعد عن باب المطبخ واتجه إلى الموضع الذي يقف فيه جواو غرانديه. وفكر أن يهاجم الرجل بالاشتراك مع جواو غرانديه. ولكن حينئذ ستكون هناك صيحات، وسيطلع الجميع على السرقة والذي استخدم لهذا العمل لم يكن يريد أي شيء من أن يحصل هذا. وفجأة خطرت لبيدرو فكرة. واقترب من الموقع الذي ترك فيه غرانديه، وهو يصفر بصوت منخفض جداً. وسرعان ما ظهر جواو غرانديه. وقال له بيدرو بالا بصوت منخفض جداً هو أيضاً: اسمع يا غرانديه. إن الخادم جالس على طرف الرزمة. عليك أن تذهب إلى الباب المؤدي إلى الشارع، وتضغط على الجرس ثم تمر على الفور. ذلك لكي يقف الخادم، وأسرق أنا الرزمة. ولكن أسرع إلى الاختباء بسرعة، بحيث لا يراك الرجل، ولكي يظن أنه رأى حلماً لا حقيقة. اتبع الوقت للوصول إلى المطبخ.

وعاد بسرعة إلى باب المطبخ، وبعد دقيقة، رن الجرس. نهض الخادم بسرعة، وزرر سترته واتجه نحو مدخل المنزل عن طريق الرواق، حيث أضاء الكهرباء. ودخل بيدرو بالا إلى المطبخ. وقام بتبديل الرزمة، واتجه نحو الزريبة. وقفز عن الجدار، وصفر للـ «القط» ولجواو غرانديه. وأسرع «القط» في الحضور. لكن جواو غرانديه لم يظهر. وذهب من جهة إلى أخرى، لكن الزنجي لم يظهر أيضاً. بدأ بيدرو يفقد الصبر، خائفاً من أن يكون الخادم قد باغت جواو غرانديه. ومن أن يكون الآن يتقاتل معه. لكنه أي بيدرو بالا، حين مر من هذا الجانب، لم يلاحظ أية ضجة.

وقال: إذا تأخر أيضاً فسوف ندخل.

وصفر مجدداً، ولم يجر أي جواب. وحزم بيدرو بالا أمره.

ـ سنعد إلى الداخل.

ولكن سرعان ما سمعتها صفرة جواو غرانديه الذي لم يتأخر عن اللحاق بهما. وسأله بيدرو:

ـ من حيث أتيت؟

ـ كان القط، قد أمسك الكلب من مقوده وأخرجه من جانب الآخر لبوابة وسحب حبل مزلاج البوابة، واختفى في الجانب الآخر من الشارع. في هذا الموضع، أصبح جواو غرانديه الموقف.

ـ حين وضعت أصبعي على الجرس، أصيبت المرأة التي فوق بما يشبه الجنون لكي تفتح هي الباب بسرعة، وقد خيل إلي أنها ستلقي بنفسها منها. كنت أعلم أن هذا يعني خوفاً من كانت تبكي وتنتحب. حينئذ أحسست بالألم. وتملكت الأسباب لأقول لها أن لا تنتحب، وأنه لم يعد هناك سبب لذلك البكاء، نظراً لأننا سرقنا الرسائل. ونظراً لأنني اضطررت لأوضح لها كل شيء، فقد استغرق ذلك مني بعض الوقت.

وسأل «القط» مفعماً بالفضول:

ـ لقد أحست بالسرور، أليس كذلك؟

ـ بلى، أحست بالسرور. وقد مسحت بيدها على رأسي، ثم شكرتني. سألت مني أن يحميني.

ـ كف عن الحماقة، أيها الزنجي. سألت فقط إن كانت مسرورة. ولكن فقط من أجل السرور. وإذا كنت قد رأيت ذلك الداعر.

لم يجب الزنجي، ودخلت سيارة في الشارع. ووضع بيدرو بالا على كتف الزنجي، وكان جواو غرانديه يعرف أن الزعيم يوافق على ما فعل، أي الزنجي. حينئذ صار وجهه بالفرح والاستبشار، وهمس:

كنت أحب فقط أن أرى رأس الخادم حين سيفتح رب العمل الرزمة ولا يجد فيها ما كانا ينتظران.

كانوا قد دخلوا شارعاً آخر، وانطلقوا ثلاثتهم لا يلوون على شيء، مطلقين عاصفة ضحك. هو ضحك «فرسان الرمال» الذي كان بمثابة نشيد شعب نامياً.

* * *

أضواء مضمار الخيول الخشبية

لم يكن « المضمار الياباني الكبير » سوى لعبة خيل برازيلية صغيرة تصل ، بعد جولة بحرية عبر مدن الساحل الدائمة ، عبر ... شهر الشتاء هذه ، حين تكون الامطار تهطل بلا انقطاع ، وعيد الميلاد ما زال بعيداً أيضاً ولشدة ما نَصُل لون الجياد الخشبية ـ وكانا في الماضي أزرق وأحمر ، والآن أصبح الازرق ابيض قذراً ، وصار الاحمر لوناً زهرياً تقريباً ولكثرة القطع التي كانت تنقص الجياد الخشبية ، وبعض المقاعد بحيث قرر السيد فراسا ، نيوربرتو فراسا ، أن يعرض العاب الجياد الخشبية في ايتاباجيب ، وليس في احدى الساحات المهمة في المدينة ، وفي ايتاباجيب لم تكن العائلات غنية جداً ، وهناك كثير من الشوارع العمالية فقط ، وباستطاعة الاولاد الفقراء أن يقدروا تضور الخيول الخشبية العتيقة الباهتة اللون وكانت الشاشة مثقوبة هي أيضاً هذا بالاضافة إلى صعوبة هائلة كانت ترغم المضمار على أن يتوقف عرضه على مرح المطر .

لقد كان هذا المضمار عهده البديع ، وكان مفخرة اولاد ماساير في أزمنة ماضية ، ذهبت دون رجعة . كان مضمار الخيول الخشبية الملونة يقوم بين حقل رومي وسوق اصطناعي ، دائماً في نفس الساحة ، وفي أيام الآحد والاعياد ، كان اولاد الاغنياء اللابسين ثياب البحارة ، أو أزياء صغار المورديات الاعلبر ، والبنات الصغيرات بالملابس هولندية أو بالمعاطف الحريرية الناعمة يأتون جميعاً للجلوس على جيادهم المفضلة وكن أصغرهم سناً يجلسون المقاعد مع مرضعاتهم وكان أهل الاولاد يذهبون إلى الحبال الروسية الاصطناعية وآخرون كانوا يقصدون النفق حيث يستطيعون حشر النساء ، ويجسون سيقانهن ومؤخراتهن في كثير من الاحيان كان يأتي ل... نيوربرتو فراسا في ذلك الحي يشكل نعيم مدينه . وأفضل من ذلك كله ، هو انه كان يدر النقود دائراً بصورة لا تكل باصواته متعددة الألوان كان نيوربرتو يجد الحياة جيدة والنساء جميلات ، والرجال يلاطفونه ، لكنه كان يرى أيضاً أن المشروب جيد هو أيضاً وانه يجعل الرجال أكثر لطفاً ، والنساء أكثر جمالاً وهكذا شرب في بدء الشهر ، ثم الحبل الروسي وآثر ذلك ، ونظراً لأنه لم يكن يريد الانفصال

عن مضمار الخيول الخشبية ، الذي كان متعلقاً به بشكل خاص ، وإلى درجة كبيرة ، فقد قام بتمكنه في أحد الايام بمساعدة بعض الاصدقاء وبدأ بارتياد مدن الاغواس وسيرجيب وخلال هذا الوقت ، كان الدائنون يبحثون بجميع أسماء الصور ، التي يعرفونها لقد كان له ماض جميل ، نيوربرتو فراسا ، مع مضمار خيوله الخشبية! وبعد أن ارتاد جميع المدن الصغيرة في الولايتين وبعد أن سكر في جميع خماراتها ، دخل إلى ولاية باهيا ، ووصل به الحد إلى اقامته عرضاً لعصابة لامبياو

كان في قرية فقيرة في داخل البرازيل ، وكان يفتقر إلى النقود ، ليس فقط لاجل نفس مضماره ، بل كان لا يجد ما يدفع به اجرة الفندق البائس الذي ينزل فيه ، والذي كان الوحيد في تلك البلدة ، ولم يكن لديه ثمن كأس واحد من الخمرة ، ولا البيرة التي لم تكن دائماً مثلجة ، لكنه كان يحبها رغم ذلك إن مضمار الخيول الخشبية ، المقام على كلا ساحة « ماتريس » ، كان متوقفاً منذ اسبوع وكان نيوربرتو فراسا ينتظر ليلة السبت وبعد ظهر الأحد ليرى اذا كان سيكسب بعض المال للانتقال إلى مكان افضل لكن يوم الجمعة دخل لامبياو إلى القرية مع ٢٢ رجلاً ، وحينئذ تحسن كثيراً عمل المضمار بهؤلاء الكانغاسيروس [١٠] الكبار ، كانوا مثل الأولاد وهم أي الكانغاسيروس في دمهم عشرون أو ثلاثون قتيلاً ـ وجدوا مضمار الخيول الخشبية حققت متعة لديهم ، وكانوا يرون أن النظر إلى أضوائه الدوارة ، وسماع الموسيقى العتيقة للبيانو الآلي التابع للمضمار ، وركوب هذه الخيول الخشبية الفقراء ، تحقق لهم أعظم متعة وأكبر سرور إن مضمار نيوربرتو فراسا قد انقذ البلدة من النهب والفتيات من الاغتصاب ، والرجال من الموت إن الحديثين التابعين لشرطة باهيا ، واللذين كانا يصفقان حديثهما أمام مركز الشرطة ، قد اعدمها الكانغاسيروس ، وذلك أيضاً قبل أن يرى الكانغاسيروس المضمار المقام على ساحة « الماتريس » وربما ، بدون شك كان يمكن أن يعفو لامبياو حتى عن شرطة باهيا في تلك السعادة الكبرى هذه ، بالنسبة لعصابة الكانغاسيروس وأصبح هؤلاء حينئذ مثل الاولاد ، ود قرأوا هذه السعادة التي لم يسبق لهم أن ذاقوها حين كانوا أولاد فلاحين فقراء . امتطاء جواد خشبي ، والدوران معه حيث تعزف موسيقى البيانو الآلي ، وحيث الاضواء متعددة الألوان زرقاء وخضراء وصفراء ، بنفسجية وحمراء ، مثل لون الدم المتفجر من أجساد من يتعرضون للاغتيال

هذه القصة هي التي رواها نيوربرتو لا « سكرع الماشية » ، (والتي جرحته بشدة) ،

(١٠) الكانغاسيروس : فلاحون فقراء يتحولون إلى قطاع طرق.

و « ذي الرجل الرخوة » في فترة بعد الظهر تلك حين التقاهما في حانة « باب السحر » (بورت دي مار) ودعاهما لمساعدته في تحريك مضمار الخيول الخشبية ، خلال الايام التي سيقام فيها هذا المضمار في باهيا ، بلدة ايتاباجيب ، ولم يكن باستطاعته أن يجدد لهما أجراً ، ولكن ربما استطاع كل منهما أن يكسب زهاء خمسة آلاف رييس كل ليلة وحين عرض « ذو الكوع الناشف » قدرته على تقليد مختلف انواع الحيوانات ، تحمس جوزيه فرانسا له غاية الحماسة ، وصب من البرميل رجاجة بيرة جديدة وأعلن ان « ذا الكوع الناشف » سيظل عند باب المضمار يدعو الجمهور إلى الدخول ، في حين أن « ذا الرجل الرخوة » سيساعده على الآلات وسيتكلف امر البيانو الآلي وهو بعد سوف يبيع بطاقات الدخول عند توقف المضمار وحين يسير المضمار ، يكتفي « ذو الكوع الناشف » بالمسألة

وقال جوزيه وهو يعصر بعينيه وبين الحين والحين ، يخرج لشرب كأس ، في حين يقوم الآخر بخدمة الأثنين

لم يسبق « لذي الكوع الناشف » و « لذي الرجل الرخوة » أبداً أن تقبلا فكرة بمثل هذه الحماسة فقد سبق لهما أن شاهدا مراراً مضماراً للخيول الخشبية ، لكنهما كانا يريانه دائماً عن بعد ، محاطاً بالاسرار ، وجياده السريعة تمتطيها اولاد الاغنياء ، السريعي البكاء ، بل إن « صاحب الكوع الناشف » قد نجح - في احد الايام حين تسلل إلى بارك العاب اقيم في منتزه عام - بشراء بطاقة دخول ، لكن الحارس طرده من ذلك المكان لأنه كان رث الثياب ، وإثر ذلك لم يقبل قاطع التذاكر أن يعيد له ثمن البطاقة ، عند دفع « ذا الرجل الرخوة » لأن يستولي على جذور الصندوق الذي كان مفتوحاً ويحتوي على جميع نقود الفرقة ، وكان عليه أن يختفي من المسرح العام بصورة سريعة جداً في حين كانت تسمع في جميع أرجائه صيحات « إلى اللص ، إلى اللص » ! ، وحدث اضطراب وهياج هائلان بل رهيبان ، في حين كان « ذو الرجل الرخوة » يهبط بهدوء تام على طريق « غاموا دي سيما » ، حاملاً في جيوبه على الأقل خمسة اضعاف ما دفعه ثمن بطاقة الدخول لكن « ذا الرجل الرخوة » كان يفضل ، مع ذلك ، أن يدور ممتطياً هذا الجواد الهائل ، الذي له رأس تنين ، وهو أروع جواد بنظمه مجموعة المضمار البديعة وقد أحس منذ ذلك الحين بالمضمار ، ازاء رجال الشرطة ، وبحب اكبر للمضمار البعيدة والآن ، ها قد جاء رجل يدفع ثمن البيرة ، ويمنحه معجزة حين يدعوه ليعيش بضعة أيام مع مضمار حقيقي للخيول الخشبية البديعة الالوان ، ولأن يتحرك معه ، ويمتطي جياده ، ويرى عن قرب دوران اضوائه المتعددة الألوان وبالنسبة « لذي الرجل الرخوة » ...

يكن جوزيه هو ذلك السكير الذي يجالسه حول مائدة حانة « بورتا دي مار » البائسة ، ففي نظره ، كان جوزيه يمثل كائناً خارقاً شيئاً مثل الله الطيب الذي يصلي له « سكر الشمير » شيئاً مثل كساميو ، شفيع جواو غراندي ، و « حبيب الله الطيب » ذلك لأنه لا الأب جوزيه بيدرو ، ولا (ماي - دي - سانتو - دو آنيينها) كانا قادرين على اجتراح معجزة كهذه وفي ليالي باهيا ، في ساحة ايتاباجيب ، سوف تدور أضواء مضمار الخيول الخشبية بجنون ، ويقوم باحصائها وتحريكها « ذو الرجل الرخوة » كان ذلك كأنما في حلم ، حلم يختلف تماماً عن الاحلام التي كان هو « ذو الرجل الرخوة » قد اعتاد أن يراها طوال ليالي قلقة ولأول مرة ، بديت عيناه بدموع لم تكن ناتجة لا عن العذاب ولا عن الغضب كانت عيناه الرطبتان تتأملان جوزيه فرانسا بسعادة فمن أجله ، كان « ذو الرجل الرخوة » مستعداً حتى لذبح رجل بالموسى التي يحملها بين السروال والكنزة العتيقة السوداء التي كان يلبسها كثياب سترة

- هذا شيء بديع ورائع ، هكذا قال بدرو بالا وهو ينظر إلى مضمار الخيول الخشبية الملونة بعد اقامته

وكان جواو غراندي ينظر بعينيه لكي يرى بصورة أفضل وكانت قد علقت مصابيح الزرقاء والخضراء والصفراء والحمراء

انه قديم وباهت الألوان مضمار جوزيه فرانسا ، لكن له جماله وربما كان هذا الجمال يكمن في أضوائه أو في موسيقى البيانو الآلي العتيق ، (فالسات قديمة لأزمنة هاربة) ، أو ربما في جياده الخشبية الملونة وربما كان يوجد مكان يجلس فيه الاطفال بمضمار أجمل ، لكن له جماله ، ذلك لأنه كان هذا هو رأي « قبطان الرمال » مجمعين على أنه جميل جداً ورائع وما همّ أن يكون عتيقاً ومحطماً ، ممحو الألوان ، إذا كان يروق للاولاد ؟

كانت مفاجأة لا تصدق تقريباً حين وصل في تلك الليلة الى المستودع « ذو الرجل الرخوة » ، معلناً أنه هو و « ذو الكوع الناشف » ، سوف يعملان بضعة أيام في مضمار الخيول الخشبية الملونة ، كثيرون لم يصدقوها ، وظنوا أن هذه مزحة جديدة من « ذي الرجل الرخوة » حينئذ ذهبوا ليسألوا « ذا الكوع الناشف » الذي كان ، يبقى كعادته جالساً في زاويته ، بلا كلام ، يتفحص مسدساً سرقه من محل لبيع الأسلحة وأيد « ذو الكوع الناشف » هذا النبأ بإيماءة من رأسه ، وكان بقول بين الفينة و الفينة

بعد ركب لا سيارو أحد هذه الخيول ، معلناً أن لا سيارو هو عربي

ودعاهم « ذو الرجل الرخوة » جميعاً لأن يذهبوا ويشاهدوا مضمار الخيول الخشبية

في الليلة القادمة ، بعد أن تتم اقامته . ثم ذهب لملاقاة نهورنهو فرانس . في تلك اللحظة ، فإن جميع القلوب الصغيرة التي كانت تنبض في المستودع قد غبطت « ذا الرحل الرخوة » على سعادته الكبرى ، وحتى « سكر الشعر » الذي كانت لديه صور قديسي على جدرانه . وحتى جونو عراندي الذي كان من المقرر أن يذهب هذه الليلة بالذات مع « حبيب سه الطيب » إلى رقص الكاليدونيلية دي بروكوبيو ، في بلدة ماتوتو . وحتى « الاستاذ » بالذات ، الذي كان يقرأ كتباً ، ومن يدري ما اذا كان بيدرو بالا هو أيضاً ، هو الذي لم يكن يحسد احداً أبداً لأنه كان زعيمهم جميعاً . أجل ، جميعهم حسدوا « ذا الرحل الرخوة » ، كما حسدوا « ذا الكوع الناشف » الذي كان جالساً في زاويته ، وشعره المتناثر الاشعث بدون تسريح ، وعيناه مفتوحتان نصف فتحة ، وفمه فاغر قليلاً في تكشيرة غضب ، وهو يشهر مسدسه اما على واحد من الصبيان ، واما على جرذ يمر قربه ، أو على النجوم التي كانت كثيرة جداً في السماء .

وفي الليلة التالية ، ذهبوا جميعاً مع « ذي الرحل الرخوة » و « ذي الكوع الناشف » (كان هذان الاخيران قد قضيا النهار في الخارج يساعدان نهورنهو في اقامة مضمار الخيول الخشبية) لمشاهدة هذا المضمار بعد اقامته . كانوا واقفين امامه ، وقد جلب النابهم جماله ، وقد فغرت افواههم لفرط الاعجاب . وكان « ذو الرحل الرخوة » يبين بالتفصيل كل جمالات المضمار . وكان « ذو الكوع الناشف » يصحبهم واحداً واحداً لكي يتأملوا باعجاب الجواد الذي امتطاه عرابه ، فيرغوليو فرينو لامبيو . وكان هناك زهاء مئة من الاولاد الذين وقفوا يتأملون مضمار نهورنهو فرانس امس ، الذي كان في تلك الساعة ، يسكر سكرة هائلة في حانة « لابورتا دي مار » (« باب البحر ») .

قام « ذو الرجل الرخوة » باطلاعهم على الآلة (وهي محرك صغير كان كثيراً ما يتوقف عن العمل) باعتزاز المالك . ولم يعد « ذو الكوع الناشف » يترك الحصان الذي امتطاه لامبيو . وكان « ذو الرحل الرخوة » يعنى عناية كبيرة بمضمار الخيول الخشبية ، ولم يكن يسمح لاحد بأن يمسها أو يحركها مهما كان السبب .

حينئذ سأل « الاستاذ » :

- هل أصبحت تعرف تشغيل الآلات ؟

- غداً سوف اعرف ذلك . هكذا اجاب « ذو الرحل الرخوة » ، بعض الاستياء . وقال : غداً السيد نهورنهو سوف يعلمني ذلك .

- اذن غداً ، بعد أن تنهي عملك ، تستطيع أن تدير مضمار الخيول الخشبية لأجل الاصدقاء وحدهم . انت ستفعل ما سمي التسيير المطبوخ ، ونحن نجلس للفرجة

بيد أن بيدرو بالا فكر بحماسة . وكان الاخرون ينتظرون بقلق ، جواب « ذي الرحل الرخوة » . وبعد لأخير قبل . وحينئذ صفق العديدون ، وأطلق آخرون صيحات . في هذه اللحظة ، ترجل « ذو الكوع الناشف » عن الحصان الذي سبق أن امتطاه لامبيو ، واقبل (« ذو الكوع الناشف ») نحوهم

- هل تريدون أن تروا شيئاً جميلاً ؟

كان الجميع يريدون ذلك ، صعد السيرتانيجو [11] إلى المضمار ، وسيّر البيانو لا ، وأسمعهم انغام رقصة فالس من أيام زمان . كان وجه « ذي الكوع الناشف » القاتم ، يضيء بابتسامة . كان يشغل البيانو الآلي ، ويراقب الاولاد المأخوذين بالمرح كان هؤلاء يصغون بحرارة إلى موسيقى التي كانت تتفجر من بطن مضمار الخيول الخشبية ، في سحر ليل ذهبي ، وذلك فقط من أجل أولئك « فرسان الرمل » المغامرة والشقية . كان الجميع صامتين . واقترب منهم عامل كان يمر في الطريق ، حين رأى تجمع الاولاد على هذا النحو . هو ايضاً لبث ساكناً بلا حراك وهو يصغي إلى هذه الموسيقى العذبة . حتى غمر ضوء البدر الجميع . وازداد لمعان النجوم في السماء . وازداد هدوء البحر (لعل ميرة البحر ايامنجا جاءت هي ايضاً لسماع الموسيقى) . ولم تعد المدينة سوى مضمار كبير كان يدور عليه على خيول غير مرئية « فرسان الرمال » . في هذه اللحظة الموسيقية ، احسوا هم بأنهم سادة المدينة . وأحب بعضهم بعضاً ، وأحسوا بأنهم اخوة . لأن الجميع كانوا معاً محرومين من الحنان والرعاية ، والآن اصبح لديهم حنان الموسيقى ورعايتها . ومؤكد تماماً أن « ذا الكوع الناشف » لم يكن الآن يفكر في لامبيو . وبيدرو بالا لم يعد يفكر في اليوم الذي سيصبح فيه زعيم جميع المالاندروس [12] في المدينة ، وكف « ذو الرحل الرخوة » عن التفكير في الارتماء بالبحر حيث جميع الاحلام جميلة . لأن الموسيقى كانت تتفجر من بطن مضمار الخيول الخشبية القديم ، لهم وحدهم ، وللعامل الذي وقف يصغي إلى الموسيقى . وكانت هذه الموسيقى رقصة فالس قديمة وحزينة ، ولحناً منسياً لرجال المدينة .

* * *

(١١) السيرتانيجو ، واحد من اهل سيرتاو .

(١٢) شبان دفعتهم الفقر إلى تكوين عصابات من قاطعي الطرق واللصوص ، الحاملين مع ذلك قيثارات للرقص والغناء .

- ملاحظة من المترجم -

كان شخص يتوافدون من جميع الشوارع المجاورة بعد الظهر، يتبعهم بعد ذلك الرجال من عملهم. وهذه الليلة يستطيعون التأخر في الطرقات. كثيرون منهم فضلوا الحانات وكانت خالية بسبب البحر، تعص بالرواد. لكن الذين لديهم اولاد جاؤوا معهم إلى الساحة المشعة بالاضاءة وبمثابة تعويض. كانت هنا أضواء مضمار الخيول الخشبية الدوارة. كان الاولاد ينظرون إلى الاضواء والخيول ويصفقون بأيديهم فرحاً. وعند الباب، كان «ذو الكوع الناشف» يطلق صرخات حيوانات ويدعو الجمهور إلى الدخول. وكان يحمل جعبة خرطوش كأنه يصطاد في براري سرناو. لقد اعتقد جورجيو أن هذا يستلفت انتباه الناس. وكان «ذو الكوع الناشف» يشبه حقاً الكابتسيرو، بقبعته الجلدية، وجعبته الصيادية. وراح يحاكي صيحات الحيوانات حتى احتشد حوله رجال ونساء وأولاد. وحينئذ جعل يعرض بطاقات للدخول كان الآخرون يشترونها. كانت البهجة وسيرح يعمران الساحة بأسرها. وأضواء مضمار الخيول الخشبية تبهج الجمع. وفي الوسط، كان «ذو الرجل الرخوة» مقرفصاً يساعد جورجيو فرانس في تشغيل المحرك. والمضمار يدور مثقلاً بالأولاد. والبيانو الآلي يطحن ألحانه القديمة. و«ذو الكوع الناشف» يبيع بطاقات الدخول.

وفي الساحة، كان أزواج العشاق يتنزهون. وربات منازل يشترين قطع البوظة (الاسكيمو)، والشراب. وكان شاعر جالساً قرب البحر، ينشد قصيدة طويلة يغني فيها أضواء المضمار وبهجة الاطفال. كان مضمار الخيول الخشبية يضيء الساحة وجميع القلوب. وفي كل لحظة، كان ناس يصلون من الشوارع والزواريب. و«ذو الكوع الناشف» يحاكي اصوات الحيوانات وهو يلابس الكابتسيرو. وحين كان المضمار يتوقف عن الدوران، كان الاولاد يهرعون مبرزين بطاقات الدخول، وكان من الصعب كبحهم. وحين كان احدهم لا يجد مكاناً له، كانت ملامح وجهه تكتسي زعلاً محزناً، في حالة قريبة من اليأس، ويظل واقفاً ينتظر دوره بفارغ الصبر. وحين يتوقف مضمار الخيول الخشبية. كان ممتطو الجياد يرفضون النزول. كان يتوجب حينئذ أن يصرخ «ذو الرجل الرخوة» بهم:

ـ هيا، انزلوا! هي، انزلوا! أو اشتروا بطاقة ثانية.

كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لجعلهم يغادرون الجياد الخشبية القديمة، التي لم تكن تتعب أبداً من السباق الابدي. وكان غيرهم يركبون المطايا، ويستأنف السباق، وتدور الأضواء، وتنصهر جميع الالوان في لون واحد غريب، والبيانو الآلي يصب أنغامه القديمة.

وكان على المقاعد الخشبية البسيطة أيضاً أزواج من العشاق، وهم، ومضمار الخيول الخشبية الملونة يدور في بهجة ورشاقة شعبية، يتبادلون همساً كلمات الحب. بل كان هناك عشاق ومعشوقات يتبادلون قبلات شبه مختلسة حين يتوقف المحرك فجأة، وتنطفئ الانوار. حينئذ كان جورجيو فرانسا و«ذو الرجل الرخوة» يعكفان على المحرك ويفحصانه لعطل حتى يستأنف الدوران، متلافين احتجاجات الاولاد. لقد أصبح «ذو الرجل الرخوة» يعرف جميع أسرار المحرك.

وفي لحظة ما، كان جورجيو فرانس يرسل «ذا الرجل الرخوة» ليحل محل «ذي الكوع الناشف» في بيع بطاقات الدخول، ويتيح لـ «ذي الرجل الرخوة» فرصة لامتطاء أحد الجياد الخشبية. وكان الغلام الصغير يختار الحصان الذي سبق أن امتطاه لامبياو. وكان طوال وقت الدورة. يمضي فاغراً كأنه يمتطي جواداً حقيقياً. ـ وكان يسدد بندقيته وكأنه سيطلق النار على الاولاد الذين امامه، وكان يراهم في تخيله ينتفضون في بركة من الدم، تحت طلقات بندقيته. وكان الجواد يعدو، وتزداد سرعته باستمرار. لكن الغلام كان يقتلهم جميعاً لأنهم كانوا في نظره جنوداً أو مزارعين أغنياء وإبر دنث. كان يمتث على مقعد جمع لنساء المساوات، وينهب القرى، والمدن، وقطارات السكك الحديدية، راكباً صهوة جواده، وشاهراً بندقيته.

وابر دنث، يأتي دور «ذي الرجل الرخوة». كان يذهب إلى جواده الخشبي الأزرق أو الأحمر، وهو صامت. كان انفعال غريب يجول عينيه. كان يمضي كما يذهب المؤمن إلى القداس والعاشق إلى صدر امرأة المحبوبة، والبائس نحو الموت. كان يمضي تائهاً، اعرج، ويمتطي جواداً أزرق، يحمل ثلاثة نجوم على كتفه الخشبية. كانت شفتاه مزمومتين، وأذناه لا تسمعان موسيقى البيانو الآلي. كان يرى فقط الانوار التي تدور معه، وكان تعلق يبقي في داخل نفسه بأنه في مضمار من الخيول الخشبية تدور في دائرة، مثل جميع هؤلاء الأولاد الذين هم أب وأم ومنزل، وأشخاص يقبلونهم، وكائنات تحبهم. كان يتصور أنه منهم، ويغمض عينيه لكي يحتفظ بصورة أفضل بهذا اليقين. وهو لم يعد يرى الجنود الذين أوسعوه ضرباً، والرجل لابس السترة الذي كان يضحك. لقد قتلهم «ذو الكوع الناشف» في ركوبه. و«ذو الرجل الرخوة» ينطلق على جواده مهشماً نابت الحنان. كان يحس وكأنه ينطلق طائراً على موج البحر، صاعداً نحو النجوم، في أروع رحلة في العالم وأكثرها اثارة للدهشة. رحلة لم يسبق لـ [illegible] لاسيد، أبداً أن قام بمثلها ولا تخيلها. كان قلبه ينبض بقوة، بقوة إلى حد أنه شد عليه بيده [illegible]

في تلك الليلة، لم يأت «فرسان الرمال». وليس فقط أن نشاط المصير على الساحة انتهى في وقت متأخر (في الساعة الثانية فجراً كانت الجياد ما زالت تدور)، بل أيضاً لأن العديد من أفراد «الفرسان»، من بينهم بيدرو بالا، و«الشارب المطيف»، وبارانداو، و«الأستاذ» كانوا منشغلين بشؤون مختلفة. وقد تم اتفاقهم، بالنسبة لليوم التالي، على اللقاء حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً. وسأل بيدرو بالا «دو الرجل الرخوة» إذا كان قد أصبح يعرف تشغيل المحرك، وقد أوضح بيدرو قائلاً:

- لا فائدة في أن تلحق الأذى بعملك.

- لقد أصبحت أعرف كل شيء عن ظهر قلب، وعلى أطراف أصابعي. إنه نموذج للعمل المتهك. وسأل «الأستاذ»، الذي كان يلعب الضامة مع جواو غرانديه:

- ألا ترى أنه سيكون من المناسب، أن «نعطف رجعا» إلى الساحة، بعد ظهر اليوم؟ من يدري، قد يكون هناك من يستحق أن نذهب؟

قال بيدرو بالا: أنا من جهتي سأذهب. لكني أعتقد أننا لا نستطيع أن نذهب إلى هناك بعدد كبير. فالجماعة يمكن أن يجتذبوا القلق لدى رؤيتهم عدداً كبيراً منا، دفعة واحدة.

- يقول «القط» إنه لن يذهب في فترة بعد الظهر. إنه مشغول. ثم إنه سيكون منهمكاً ليلاً في مصير الخيول الخشبية.

فقال «دو الرجل الرخوة» ساخراً:

- ألا يستطيع أن يقضي يوماً بدون أن تحرك به تحديك مع تلك المومس، ما قولك؟ سيكون مصيرك تعساً يا صديقي.

ثم يجب «القط» بأن جواو غرانديه هو أيضاً لن يذهب في فترة بعد ظهر اليوم. إذ إنه قد قرر أن يمضي مع «حبيب الله الطيب» لكي يذهبا لتناول الطعام عند دون آنيسيا لامي دي ساسو. وفي النهاية، تقرر أن يذهب فريق صغير يعمل في الساحة ويستطيع أن يذهب حيثما شاؤوا، وفي الليل فقط، سوف يجتمعون كلهم لامتطاء خيول المصير الملونة. وقال «دو الرجل الرخوة» محذراً:

تحت حصار السرير، إنها الشمس، لنتحرك. وقام «الأستاذ» (كان قد كسب ثلاث جولات من جواو غرانديه) بجمع نقود من رفاقه لشراء ليبرين من السرير.

- سأحضر السرير.

ولكن في فترة بعد ظهر يوم الأحد هذا، لأن جوزيه بيدرو، الذي كان من الأشخاص النادرين جداً الذين يعلمون أين هو ملجأ الأكثر دواماً لـ «فرسان الرمال»، وقد ربط الأب جوزيه بيدرو معهم بعرى الصداقة منذ زمن طويل. وهذه

الصداقة نشأت بواسطة «الشارب المطيف»، أحد صبيان العصابة. وكان هذا الأخير، قد تسلل يوماً، بعد القداس، إلى موهف[١٣] (سكرستيا) إحدى الكنائس حيث كان الأب جوزيه بيدرو يقوم بالخدمة المقدسة. وكان «الشارب المطيف» قد دخل إليه بهدف مجرد الفضول قبل أي شيء آخر. هذا الغلام لم يكن من الذين يهتمون كثيراً بشؤون الحياة ويسعى إلى الرزق. كان يحب ترك الوقت يمضي، دون أن يكلف نفسه رهقاً. كان على الأخص، طفيلياً في الجماعة. وفي بعض الأيام، حين يشاء هواه، كان يسعى إلى حد منازل، ويجد منه شيئاً ثميناً، أو يشي بمحفظة شخص ما. ولم يكن يقوم أبداً، تقريباً، بتسليم ما يسرق من اعتادوا حفظ الأشياء المسروقة، بل كان يحضره، ويسلمه إلى بيدرو بالا، كشلة إسهام منه في حياة الجماعة. وكان له أصدقاء كثيرون من حمالي الميناء، وفي مختلف منازل الفقراء في مدينة القش، وفي مواضع عديدة من ولاية باهيا. وكان يأكل على مائدة هذا، ثم على مائدة ذاك، من الناس. وبصورة عامة، لم يكن يثير سأم أحد. وكان يكتفي بالنساء اللواتي يردن عن حاجة «القط». وكان يعرف، أفضل من أي شخص آخر، المدينة وطرقاتها، والمواضع الأكثر إثارة للفضول. ولم يكن للاحتفالات والأعياد، حيث يذهب ليشرب ويرقص، وحين يمضي بعض الوقت لم يساهم فيه بشيء ثمين في التنظيم الاقتصادي للجماعة. كان يبذل جهداً وينصرف بحيث يحصل على شيء يعود بالنقود، ويسلمه إلى بيدرو بالا. لكنه، في الحقيقة، لم يكن يحب أي نوع من العمل، شريفاً كان أو غير شريف. وما كان يحبه هو أن يتمدد على رمال الشاطئ، ساعات وساعات، يرصد الشمس، وأن يلقاه مرقصاً طرب كاملة ما بعد الظهر على أبواب حوانيت الفاكهة، مصغياً إلى قصص السادة التي يرويها عمال أو صيادون. كان يرتدي الأسمال الرثة، ذلك لأنه لم يكن يغير ملابسه إلا حين تسقط حرقاً ممزقة. كان يحب التسكع في طرقات المدينة، أرقتها وشوارعها، وحملات بعض الحدائق للتدخين سيجارة، أو إلى إحدى الكنائس لتأمل تعاجيب جمال الذهب العتيق، متشرداً عبر الطرقات المبلطة بحجارة كبيرة سوداء.

في ذلك الصباح، حين رأى الناس خارجين من القداس، دخل إلى الكنيسة دون مرور. وشق طريقه نحو الموهف (السكرستيا) وراح يفحص كل شيء، المذابح، والكراسي، ووقف يسخر من صورة تمثل القديس بولس، القديس الأسود. لم يكن يوجد

[١٣] موهف (سكرستيا): مكتب موضع فيه ثياب الكنيسة، وحيث يرتدي الكهنة ملابسهم الكهنوتية. - ملاحظة من المترجم -

أحد المواعظ، ورأى حلية ذهبية يمكن أن تدر نقوداً كثيرة وألقى نظرة حيرة حوله، فلم ير أحداً. مد يده لكن شخصاً لمس كتفه. كان الأب بيدرو قد دخل.

- لماذا تفعل هذا يا ولدي؟ هكذا سأله الخوري باسماً، في حين كان يسحب من يد «الشارب اللطيف» الذخيرة الذهبية

- كنت انظر اليها فقط، يا أبت. انها مزيفة. هكذا أجاب «الشارب اللطيف» مخفياً بعض الخوف وأردف: نعم، انها مزيفة تماماً. لكن لا تظن اني كنت سأسرقها. بل كنت سأتركها هنا. هكذا، كما هي. إنني من عائلة محترمة

ألقى الأب جوزيه بيدرو نظرة سريعة على أسمال «الشارب اللطيف» وأغرق بالضحك. ونظر «الشارب اللطيف» هو أيضاً إلى ثيابه الرثة

- هذا لأن والدي قد توفي، في الحقيقة. لكنني كنت أدرس في كنيسة. أنا أقول الصحيح. ولماذا أسرق هذه الحلية؟

وأشار إلى الذخيرة الذهبية وأضاف

- ولي كنيسة أيضاً. أنا لست وثنياً

ابتسم الأب جوزيه بيدرو مجدداً. كان يعرف تماماً أن «الشارب اللطيف» يكذب. منذ زمن طويل كان الخوري ينتظر فرصة تمكنه من الاتصال بالاولاد المشردين في المدينة. كان يعتقد أن الرسالة المناطة به هي هذه: مساعدة الأولاد المشردين. وكان قبلاً قد زار مراراً دور الاصلاحيات، لكن المسؤولين عن تلك الدور كانوا يضعون أمامه عقبات وحواجز من كل نوع، لأنه لم يكن يوافق على رأي المدير القائل بأن أفضل وسيلة لاصلاح ولد ارتكب ذنباً هي ضربه بلا هوادة. ومنذ زمن طويل كان الأب جوزيه بيدرو يسمع الاحاديث عن «فرسان الرمال»، ويحلم بالاتصال بهم. ولأن يتمكن من هدي جميع هذه القلوب إلى الله. كانت لديه رغبة شديدة جداً بالعمل مع هؤلاء الأولاد، ومساعدتهم على أن يكونوا أخياراً. لذلك، عامل «الشارب اللطيف» بأفضل ما استطاع. ومن يدري، فربما بواسطة هذا الغلام يصل إلى «فرسان الرمال»؟ وهكذا كان.

في الاكليروس، لم يكونوا يعتبرون الأب جوزيه بيدرو كبير الذكاء. بل لقد كان أحد أكثر مجموعة كهنة باهيا تواضعاً. وفي الواقع، فقبل أن يدخل إلى المدرسة الاكليركية، كان الأب جوزيه عاملاً، لمدة خمس سنوات، في مصنع أقمشة. وقد قرر مدير المصنع، في أحد الأيام، عند زيارة مطران هذا المصنع، أن يقدم دليلاً على

سخاء نفسه فأعلن بأنه، نظراً لأن سيدنا المونسنيور يشكو من قلة الدعوات[1] الرهبانية، فإنه أي صاحب المصنع، مستعد لأن يدفع نفقات تعليم طالب في مدرسة اكليركية، أو نفقات طالب آخر يريد أن يدرس ليصبح كاهناً. عندئذ، اقترب جوزيه بيدرو، وكان يعمل على النول، وقال إنه يريد أن يصبح كاهناً. كانت هذه مفاجأة لرب العمل وللمطران على حد سواء. إن جوزيه بيدرو لم يعد شاباً، ولم تكن لديه أية ثقافة. لكن رب العمل، لم يكن يريد، أمام المطران، أن يسحب كلامه

وذهب جوزيه بيدرو إلى المدرسة الاكليركية وجعل تلامذتها يسخرون منه، ولم يفلح أبداً في أن يكون تلميذاً مجتهداً. كان سلوكه جيداً، بالتأكيد، ومن أتقى التلامذة، ومن الذين يرتادون الكنيسة أكثر من سواهم. ولم يكن يوافق على كثير من الامور التي تحصل في الدير، ولأجل هذا كان التلامذة يضطهدونه. ولم يكن يستطيع فهم أسرار الفلسفة، واللاهوت، واللغة اللاتينية. لكنه كان ورعاً تقياً، وكان يرغب في تعليم مبادىء الدين للاولاد وللهنود الحمر. وقد عانى كثيراً من الآلام والعذاب، وعلى الأخص حين توقف صاحب المصنع، بعد سنتين، عن دفع نفقات دراسة جوزيه بيدرو، فاضطر هذا الاخير ليعمل خادماً في الدير لكي يستطيع الاستمرار. لكنه استطاع أن يسام كاهناً فجرى الحاقه باحدى كنائس العاصمة في انتظار الخورنية (قرية يخدمها ككاهن). ومع كل ذلك، فقد كانت رغبته الكبرى هي أن يعلم الأولاد المشردين في المدينة مبادىء الدين، هؤلاء الصبيان الذين كانوا بلا أب، ولا أم، ولا مرب ويعيشون على السرقة، معرضين لجميع الآثام والآفات. كان الأب جوزيه بيدرو يريد أن يهدي جميع هذه القلوب إلى الله. وهكذا راح يرتاد دور الاصلاحيات، حيث استقبله المدير، بادىء بدء، بلطف كبير. ولكن حين أعلن الكاهن أنه ضد العقوبات الجسدية، وضد عملية ترك الأولاد فريسة للجوع طوال أيام، حينئذ تغير الوضع، وسارت الأمور بطريقة أخرى. وفي هذا الصدد، اضطر الكاهن في أحد الأيام لكتابة رسالة إلى هيئة تحرير احدى الصحف. ومنذ ذلك الحين، مُنع (بضم الميم وكسر النون) الأب جوزيه من دخول دور الاصلاحية، بل وقد جرى توجيه شكوى ضده إلى مقر الأبرشية. وبسبب كل هذا، لم يتمكن من أن يكون له رعاة مناصرون. بيد أنه كان يحس برغبة شديدة وكبيرة في التعرف إلى «فرسان الرمال»، إلى مشكلة الأولاد

(1) الدعوة الرهبانية Vocation أو الارشاد الرباني. وهو نداء باطني (شعور الانسان بأنه مدعو للقيام بعمل اجتماعي أو ديني خاصة) - ملاحظة من المترجم -

المصريين والجائعين، حتى لم يكن لهم أحد يقربهم في المدينة. كانت أكبر هموم الأب جوزيه بيدرو. كان يريد مقاربة هؤلاء الأولاد، ليس فقط لهديهم إلى الله ولكن أيضاً لكي يرى ما إذا كانت ثمة وسيلة ما، لتحسين حياتهم. كان يعوز الأب جوزيه بيدرو صغيراً. لم يكن لديه أي تأثير ولم يكن يعرف أيضاً ماذا يفعل لكسب ثقة هؤلاء اللصوص الصغار. لكنه كان يعلم أن حياتهم فاقدة لأي رفاه، ولأي حنان. حياة جماعة المشردين. ولكن الأب جوزيه ليس لديه سرير ولا طعام ولا ملابس يقدمها لهم، فقد كان لديه على الأقل كلمات عطف. وسيتأكد كثير من حب في قلبه يعطيهم إياه. في البدء، أخطأ الأب بيدرو في خطبه وفي عظاته، بقوله التخلي عن الحرية التي يتمتعون بها. وهم متروكون في الشارع، مقابل حياة أكثر راحة ورفاهاً. كان الأب جوزيه بيدرو يعلم جيداً أنه لا يستطيع توجيه هؤلاء الأولاد نحو دار الإصلاحية. فقد كان يعرف جيداً جداً ما هو بين دار الإصلاحية، الغرف المكوية والأخرى التي يجري تصفيقها. وكان يعلم جيداً أنه لم يكن هنالك أي مكان لوضع دخول الإصلاحية لأن يصبح طفلاً وشعلاً. لكن الكاهن كان يعتمد على بعض صدقاته وعلى سرقة تقيات، من مرمنات، وكريمات العويس. كان في استطاعتهن كفالة عدة أولاد من فرسان الرمال، في بيوتهم وطعامهم. لكن ما الذي كان يعني أن ينحل هؤلاء الصبيان عن كل ما يشكل عظمة حياتهم المغمورة الحرية في شوارع أكثر مدن العالم أسراراً وأجملها في شوارع باهيا جميع القديسين. ومنذ أن أقام الأب جوزيه بيدرو بواسطة الشارب اللطيف، علاقات مع فرسان الرمال، أحس بأنه لو عرض عليهم ذلك الاقتراح، فسوف يفقد كل الثقة التي وضعوها فيه، وأنهم سيعيرون مقرهم وأنه لن يراهم أبداً بعد ذلك حتى. وفي الحقيقة، أنه لم يكن لديه هو أيضاً ثقة مطلقة في هذه العوانس صاحبات التسبحات اللواتي كن يقضين حياتهن منحنيات في الكنيسة واللواتي يغتبن قرب مائدتين القداديس لكي يخضن في الحديث عن حياة الآخرين. وهو يذكر أنه في البدء خرج مشاعرهن حين قربت منه، إثر انتهاء أول قداس أقامه في هذه الكنيسة، مجموعة من التقيات المرمنات، كان واضحاً أنهن يردن مساعدته في خلع ثياب خدمة القداس. وتسابقت حوله صيحات تعجب حنون:

- يا المحترم الصغير. إنه الملاك جبريل.

واقتربت منه عجوز، نحيفة جداً، وشبكت يديها كما عند العبادة وقالت:

- يا صغيري يسوع المسيح المعبود.

كان يبدو أنهن يصلين له، بل يعبدنه. فثار الأب جوزيه بيدرو. وفي الحقيقة،

كان يعلم أن بعض الكهنة، لم يكونوا يرفضون هذه العبادة لهم. بل كانوا يحصلون على هدايا كثيرة من المربيات والمدبوغات الهندية، ومناديل المطرزة، بل وحتى ساعات ذهبية سوداء أنها عبر الأجداد أولاد عشيقاتهن. لكن الأب جوزيه بيدرو كانت لديه أفكار أخرى عن مهمته. كان يرى أن الآخرين مخطئون. وسوف يغضب غضباً شديداً ويقول لهن:

- يا سيداتي، أليس لديكن شيء آخر تفعلنه؟ أليس لديكن منزل تعتنين به؟ إني لست يسوعكم المسيح المعبود، ولا الملاك جبريل. اذهبن للعمل في منازلكن، لإعداد الطعام، والحياكة.

كانت الضفادع الجربان، هذه العجائز ينظرن إليه، مذهولات. فكأنه كان المسيح الدجال بشخصه. وأنهى الكاهن كلامه قائلاً:

- لكن بعضكن في منازلكن، سوف تحدثن حديثاً. إلا أنها بصورة أفضل من شغلكن هنا، رائحة ثوب. اذهبن... اذهبن...

وفي حين كن يخرجن مرعوبات، كان يردد قائلاً غير قادر أكثر من الغضب:

- يا يسوعي المسيح المعبود... يا الله عشاً.

ذهبت النسوة التقيات في خط مستقيم إلى عند الأب كلوفيس، الذي كان بديناً، وضيعاً، وذا مزاج مرح. كان هو معرّف هاته السيدات. وروين له وسط صيحات تعجب واندهاش، ما حدث من الأب. لكن الأب كلوفيس للتقيات بمحاذير تعني حنوه ومرحه قائلاً:

- هذا الأمر سوف ينتهي. الأب بيدرو جاء منذ فترة قريبة فقط. فيما بعد، سوف يرى أنه بحاجة للسيدات التقيات. فأنتن سند الرب الحقيقيات. سوف تمر الصعوبة اذهبن ورتلن للأبانا. ولا تنسين أن هذا اليوم هو يوم تبريك.

سيغرق الأب كلوفيس في الضحك بعد أن ذهبن. وهمس في داخله: هؤلاء الكهنة حديثو العهد، الفارغون، يكدرون حياة الناس.

وفيما بعد، أخذت النسوة التقيات يمشين متقربات أكثر فأكثر من الأب جوزيه بيدرو. وفي الحقيقة فهو لم يصل معهن أبداً إلى صلة حسنة تماماً. إن هيئته المهيبة، وطيبته التي كانت تكرس للظروف التي تكون فيها ضرورية، وبعظمة قداسه، الكهنوتية الصغيرة، كانت تدفعهن إلى أن يحترمنه أكثر مما يحببنه. بيد أن أواصر الصداقة تمّت بينه وبين النسوة، وهي بصورة عامة أرامل، أو زوجات رجال أدباء. وكان سبب آخر ساعد بينه وبين التقيات مرمتات. وهو أنه كان نقصاً

للمواعظ المستمرة. فهو لم ينجح أبداً في وصف الجحيم بقوة الإقناع التي كان يملكها الأب كلوديس، مثلاً. كانت بلاغة الأب بيدرو فقيرة، وفاشلة في كثير من الأحيان. لكنه كان لديه الإيمان. لقد كان مؤمناً. ومن جهة أخرى، كان من الصعب التأكيد بأن الأب كلوديس يؤمن بالجحيم على الأقل.

في البدء، فكر الأب جوزيه بيدرو بتسليم «فرسان الرمال» إلى النسوة التقيات. وكان يعتقد بذلك أنه ليس فقط سينقذ الأولاد من حياة بائسة، بل أنه سوف ينقذ التقيات المونتيات من حياتهن غير المجدية. بصورة صارمة كان في وسعه الحصول على أن يكرس بعضهن للأولاد بعض التقى الحار اللواتي يكرسن به أنفسهن للكنائس، وللكهنة دون فائدة. وكان الأب جوزيه بيدرو يجزم (أكثر مما كان يعلم) بأنهن قد كن يمضين حياتهن في أحاديث تافهة في الكنائس، أو في تطريز مناديل للأب كلوديس. فذلك لأن هاته العوانس المسنات لم يكن لهن ولد، أو زوج يكرسن له وقتهن وحنانهن. إنه الأب سيأتيهن بأبناء. ظلت هذه الفكرة تراود الأب جوزيه بيدرو زمناً طويلاً. بل حدث أنه اصطحب إليهن ولداً كان قد فر من دار الإصلاحية، وذلك قبل زمن طويل من تعرف الأب إلى «فرسان الرمال»، حين كان يسمع القليل عنهم. وأدت التجربة إلى نتائج سيئة. لقد فر الغلام من منزل العانس المسنة، آخذاً معه عدة قطع من الفضيات، مفضلاً على الملابس الجميلة والغذاء المضمون مع واجب تلاوة التسبيح بصوت عال، وحضور مختلف القداديس وصلوات التبريك اليومية — حرية الشارع، حتى وهو يحس الإسهال التائه، وحتى دون أن يكون متأكداً من الحصول على غذاء. وفيما بعد، فهم الأب جوزيه بيدرو أن التجربة قد أخفقت بخطأ العانس المسنة أكثر منها بخطأ الولد. ذلك صحيح. كما كان يرى الأب جوزيه بيدرو، لأن من المستحيل تحويل ولد متشرد وسارق إلى قديس. لكن من الممكن جداً تحويله إلى رجل شغيل. وكان يأمل بأنه حين سيتعرف إلى «فرسان الرمال» سيحقق اتفاقاً بين بعضهم والنسوة التقيات، بمحاولة القيام بتجربة جديدة، تكون هذه المرة موجهة جيداً. ولكن ما أن قدمه الغلام «الشارب اللطيف» إلى المجموعة، وحين كسب شيئاً فشيئاً ثقة القسم الأكبر منهم، رأى أن من غير المجدي كلياً أن يراوده هذا المشروع. لقد أدرك أن هذا المشروع عبثي، لأن حب الحرية كان الشعور الأكثر تجذراً في قلوب «فرسان الرمال»، وأنه ينبغي استعمال وسائل أخرى.

في الآونة الأولى، كان الأولاد ينظرون إليه بحذر وريبة. ومراراً عديدة في الشارع، كانوا يسمعون أن الخوري يأتي بالنحس وسوء الحظ، وأن التعامل مع الكهنة

هو جيد فقط للنساء. لكن الأب جوزيه بيدرو كان عاقلاً، ويعرف كيف يعامل الأولاد. كان يعاملهم كرجال، وكأصدقاء. وهكذا كسب ثقتهم، وأصبح صديق الجميع، حتى أولئك الذين، مثل بيدرو بالا و«الأستاذ»، لم يكونوا يعيرون الصلاة، ولا يلاقون صعوبة كبيرة بالإصغاء إلى «ذي الرجل الرخوة». وفي حين كان «الأستاذ» وبيدرو بالا، و«القط» لا يبدون اهتماماً بأقوال الكاهن (ومع ذلك، كان «الأستاذ» يحبه كثيراً لأنه كان يحضر له كتباً) فإن «سكر الشعير» و«ذو الكوع الناشف» وجواو غراندي، وعلى الأخص الأول، كانوا يهتمون كثيراً بما كان يقوله. فإن «ذا الرجل الرخوة» من جهته كان يبدي عداء عنيداً جداً في البدء، إلا أن الخوري جوزيه بيدرو انتهى به الأمر إلى كسب ثقة الجميع. وهو قد اكتشف على الأقل، في «سكر الشعير» دعوة رهبانية، واعتقد أنه سيكون كميركياً.

ولكن في مرة بعد الظهر هذه، بصر الغلمان بدون ارتياح كبير إلى مجيء الأب جوزيه بيدرو. اقترب منه «سكر الشعير» وقبل يده. وكذلك فعل «ذو الكوع الناشف»، وحياه الآخرون. وأوضح الكاهن سبب مجيئه:

— لقد حضرت دعوة لكم جميعاً.

أرهف الأولاد السمع. وتمتم «ذو الرجل الرخوة» قائلاً:

— سوف يأخذنا للمعتقد. أود تماماً أن أرى من الذي سوف يستجيب له.

لكنه لزم الصمت، لأن بيدرو بالا كان ينظر إليه بغضب. وابتسم الكاهن ابتسامة ضعيفة وجلس على صندوق. ورأى جواو غراندي أن جبة الخوري كانت قذرة وضيقة. وكانت مرقعة بخرق كبيرة بخيط الأسود. وكانت واسعة جداً بالنسبة لنحافة الكاهن. ولكن بكوعه بيدرو بالا الذي نظر هو أيضاً إلى الجبة. حينئذ قال بالا:

— أيها الفتيان، إن لدى الأب جوزيه بيدرو الذي هو صديقنا ما يقوله لكم. عاش الأب جوزيه بيدرو!

كان جواو غراندي يعرف أن هذا كله نابع عن الجبة الممزقة والكبيرة جداً بالنسبة لنحول الكاهن. وهتف الآخرون: «مرحى!». ابتسم الكاهن، مشيراً بيده. ولم يكن جواو غراندي يحول عينيه عن الجبة. وقد رأى أن بيدرو بالا كان زعيماً حقاً، يعرف كل شيء. ويحس أن يعمل كل شيء. ومن أجل بيدرو بالا، كان جواو غراندي مستعداً لأن يقطع جسمه مزقاً. مثل ذلك الزنجي الملاهوس من أجل ماربورا، سيد الفرسان. ودس الأب جوزيه بيدرو يده في جيب جبته وأخرج كتب الصلوات السود ومحفظة، وأخرج من داخلها بضع بطاقات ذات العشرة آلاف ريس كل منها.

ـ هذا الأحسن أن تدعو جميعاً إلى مصار الخيول الخشبية الدوارة اليوم، في ساحة ايتانا جيب

كان ينتظر أن تتهلل وجوه أكثر، وأن يسود فرح هائل القاعة كلها، ذلك لأنه على هذا النحو سوف يكون أكثر اقتناعاً بأنه عمل بمشيئة الله حين أخذ من الخمسمئة كروزيروس التي أعطته إياها دونا علهرمين ليشتري شموعاً لمذبح العذراء، خمسين كروزيروس لاصطحاب « فرسان الرمال » إلى مصار الخيول الخشبية. ونظر إلى الأولاد وجوههم لم تبتهج كما أراد. أحس بالحيرة، والأوراق المالية في يده، وهو ينظر إلى الصغار. وحث بدرو بالا شعره (المسترسل على أذنيه)، وأراد أن يتكلم، ولم يستطع. فصرخ حينئذ البروفسور « الأستاذ ». وكان هذا الذي أوضح:

ـ يا أبتي، أنت رجل طيب. كان يريد أيضاً أن يقول إن الأب هو طيب مثل جواو غراندي، لكنه خشي أنه ربما أحس الكاهن بالاستياء لمقارنته بزنجي. لكن ما يحدث هو أن « ذا الرجل الرخوة » و« ذا الكوع الناشف » يعملان كلاهما في المصار وكانا مدعوين جميعاً. هذا « الأستاذ » برهة ـ من قبل صاحب المصار الذي هو صديقهم، سنكون غداً هذه الليلة. ونحن لا ننسى لك دعوتك.

كان « الأستاذ » يتكلم برصانة، منتقياً كلماته، معتقداً أن اللحظة حاسمة. حاول أن يشرح كثيراً. وكان بدرو بالا يؤيده بإيماءة من رأسه.

ـ سنكون هناك مرة أخرى. أليس لن يغضب الأب لم نقبل الدعوة من بعضنا، أليس كذلك؟

فرح بيد الكاهن الذي عاد وجهه المرح.

ـ كلا، لن أغضب. وستكون دعوتي لكم في مرة أخرى.

ونظر إلى الأولاد باسماً.

ـ من سيكون الأمر أفضل هكذا، لأن أعود بثمن.

وضحك معه الآن كل منهم واعتقد أنه رأى كان هذا غيرة من الله ونسيها، إنه، إن الكاهن قد ارتكب عملاً سيئاً. وكانت نظرته من الغرابة بحيث أن الأولاد فهموا ما حدث.

كانوا ينظرون إلى الكاهن دون أن يفهموا. ورأى بدرو بالا ما بين حاجبيه كان عنده حزن مبالغ. وحاول « الأستاذ » أن يتكلم فكر جواو غراندي فهم كل شيء، رغم أنه كان في ذلك من الجميع.

ـ هل كان هذا مال الكنيسة يا أبت؟

وعض شفته، غاضباً من نفسه.

لقد فهم الناقوس، واعتقد « سكر الشعير » أن هذه كانت خطيئة كبيرة، لكنه أحس بأن طيبة الأب تتخطى الخطيئة. وحينئذ جاء « ذو الرجل الرخوة » وهو يعرج أكثر من العادة، كأنه قادم وهو يصارع ذاته. ووصل إلى قرب الكاهن، وكان يصرخ تقريباً في البداية، مع أنه خفض صوته كثيراً أثر ذلك:

ـ نحن نستطيع إعادة النقود إن حيث كانت. لا عليك، فلا تهتم ونسيم العلام.

ابتسامة « ذي الرجل الرخوة » والمودة التي كان الكاهن يقرأها في عيون الجميع (أليست هذه دموعاً تلك التي يراها في عيني غراندي)؟ قد أعادت إليه الهدوء، وصفاء النفس، والثقة بقدرته وبأفعاله. وأجاب بصوته الطبيعي:

ـ يا أبنائي، قد أعطتني خمسمئة كروزيروس لشراء شموع. وأخذت خمسين كروزيروساً منها لكي تركبوا بها خيول المصار الخشبية. وسيحكم الله ما إذا كنت قد أحسنت العمل. والآن سوف أشتري شموعاً بالمبلغ كله.

كان بدرو بالا يحس بأن عليه ديناً يؤديه نحو الكاهن. كان يريد أن يعرف الأب أن جميع جمهوريته ولو لم يرَ أنه وسيمه، غير هذه. فقد استعد لنحي عن العمل لدى كان يمكن أن يسمح خلال فترة بعد ظهر ذلك اليوم، ودعا الأب:

ستذهب إلى المصار رؤية « ذي الكوع الناشف » و« ذي الرجل الرخوة »، لأن في فترة بعد الظهر. فهل تريد أن تأتي معنا يا أبت؟

وقبل الأب جوزيه بدرو، لأنه كان يعلم أن هذا يشكل خطوة إلى الأمام في علاقته الحميمة مع فرسان الرمال. وهكذا ذهبت جماعة مع الكاهن إلى الساحة واسع العديدون عن الذهاب، كان فيهم « سكر الشعير » الذي ذهب لزيارة « دونا ». لكن الذين ذهبوا إلى المصار، كانوا يبدون مثل فريق من الأولاد الصغار الصبيان العائدين من درس. فهم بعد التنس. ولو كانت ثيابهم جيدة ونظيفة، لكان المرء يحسبهم تلامذة مدرسة داخلية، بمرافقة المرشد الذي كان خلفهم.

في الساحة، ذو مع الكاهن سيفرحون على كل شيء. وأشاروا باعتزاز إلى « ذي الكوع الناشف » الذي كان يحاكي صوت الحيوانات، وإلى « ذي الرجل الرخوة » الذي كان يدير مصار الخيول الخشبية وحده. لأن نورنهو كان قد ذهب لاحتساء الخمر في إحدى الحانات، وشرط أنه لم يكن الأضواء مشعلة في فترة بعد الظهر، لم يكن ذلك جميلاً كما هي الحال في الليل حين تدور الأضواء بألوانها المشعة المتعددة. لكنهم كانوا معتزين بـ« ذي الكوع الناشف »، الذي يحاكي صوت

الحيوانات. و «ذي الرجل الرخوة» الذي كان يدير مضمار الخيول الخشبية، ويقوم بإصعاد الأولاد إلى صهوات الخيول، ثم ينزلهم عند انتهاء دورهم

وقام «الأستاذ» بقلم صغير، وغطاء علبة، برسم «ذي الكوع الناشف» في بدلة قرصان Filibuster كانت لدى «الأستاذ» موهبة خاصة في الرسم، وأحياناً كان يكسب نقوداً برسمه على الرصيف أشخاصاً يمرون، وفتيات صبايا أثناء مرورهن مع خاطبيهن. وكان هؤلاء يتوقفون لحظة، ويرمون النقود بالرسوم غير المحددة بعد، ويقولون

- هذا رسم مشابه جداً

وكان «الأستاذ» يلتقط القروش ويستمر حينئذ في ريشة الرسم المخطط بالطباشير، وبرسمه، وتصوير المارة من الرجال والنساء المتدللات، إلى أن يطرده شرطي من الجادة. وأحياناً، كان المارة يتجمعون قرب الرسام، متأملين في رسومه، وكان بعضهم يقولون

- هذا الولد ذو موهبة واعدة. وخسارة أن لا تهتم الحكومة بهذه المواهب

وكانوا يتحدثون عن حالات أولاد من الشارع، مدت لهم بعض العائلات يد مساعدة، فأصبحوا شعراء كباراً، ومغنين، ورسامين

أنهى «الأستاذ» رسمه (التي أدرج فيه مضمار الخيول الخشبية، وجوزيه فرانسسكو ن حتى «اللطفاء») وأعطاه للكاهن. وكانوا قد شكلوا جمعاً مريعاً كثيفاً، وراحوا ينظرون إلى الرسم الذي كان الكاهن يمتدحه، حين سمعوا

- ولكن هذا هو الأب جوزيه بدرو

وسددت العانس لسه نظارتها المفردة نحو الجماعة مثل سلاح حربي. ولبث الأب جوزيه بدرو شبه مرتبك، وكان الأولاد ينظرون بفضول إلى عظام رقبة العجوز وصدرها، حيث كانت حلية ثمينة تتلألأ في ضوء الشمس. وكانت لحظة لبث الجميع فيها صامتين. إلى أن استعاد الأب جوزيه بدرو شجاعته، وقال

- مساء الخير، أيتها السيدة مرغريت

لكن الآنسة مرغريت ستوس سددت نظارتها الذهبية المفردة، مجدداً

- ألست تخجل لكونك في هذا المكان، يا أبت؟ ألست كاهناً للرب؟ رجل في مثل مسؤوليتك وسط هؤلاء الأوباش

- إنهم أطفال يا سيدتي

حدجته العجوز بنظرة سخط. ورسم فمها تعبير ازدراء. وأردف الأب قائلا

لقد قال المسيح «دعوا الأطفال يأتون إلي»

- أطفال... أطفال... وصمتت العجوز

لقد قال الرب. شقي هو الذي يسيء إلى طفل

ورفع الأب جوزيه بيدرو صوته فوق ازدراء العجوز. وقالت هذه

هؤلاء ليسوا أطفالاً، إنهم لصوص الميناء. لصوص. هؤلاء ليسوا أطفالاً، بل يمكن أن يكونوا من أفراد «فرسان الرمال». ورددت فوها هذا بازدراء

راح الأولاد ينظرون إليها في فضول. كان «ذو الرجل الرخوة» العائد من المضمار، يصرّ أن جوزيه فرانسسكو كان قد عاد، ينظر إلى العجوز بغضب. وخطا بدرو بلا خطوة إلى الأمام، وأراد أن يوضح

- سيدتي، إن الأب فقط أن ....

- لا تقترب مني. لا تقترب مني، يا قذارة! ولولا الأب، لاستدعيت شرطياً

وأطلق بدرو بلا ضحكة فاضحة، حين فكر بأنه لولا وجود الخوري، لكانت العجوز قد فقدت حليه الذهبية وحتى النظارة بالذات. وابتعدت العجوز بهيئة النبلاء الكبار، بعد أن قالت للأب

- على هذا النحو، لن تذهب بعيداً يا أبت، إنه أكثر للملاقاة

كان بدرو بلا يضحك بصورة أشد، كل مرة. والكاهن هو أيضاً مستغرق في الضحك، وإن كان قد أحس بالألم من أجل العجوز، لعدم تفهمها. لكن مضمار الخيول الخشبية كان يدور، حاملاً الأولاد بملابس جديدة، وشيئاً فشيئاً تسمرت عيون «فرسان الرمال» نحو المضمار، وامتلأت بروعة ممتطاء الخيول الخشبية، والدوران مع الأضواء

وفكر الأب: إنهم أطفال، نعم

في تلك الليلة، هطل عارض من مطر. لكن الغيوم تلاشت بسرعة من السماء، وتلألأت النجوم، وتألق البدر. وبعد الفجر، وصل «فرسان الرمال» ومنهم «ذو الرجل الرخوة» المحرك. ونسوا أنهم لا يشبهون الأولاد الآخرين، ونسوا أنهم ليس لهم أب ولا أم ولا منزل. وأنهم يعيشون من السرقة، كرجال، وأن المدينة تخشى بأسهم كلصوص. ونسوا أقوال العجوز ذات النظارة المفردة. نسوا كل شيء، وأصبحوا مشابهين لجميع الأولاد، ممتطين خيول المضمار الخشبية، دائرين مع الأضواء. كانت النجوم تتلألأ، وتألق القمر البدر. ولكن فوق كل شيء كانت تتلألأ في ليل باهية، هذه الأضواء الزرقاء والخضراء، والحمراء، لمضمار الخيول الخشبية اليابانية

* * *

عمال الموانئ

ألقى بيدرو بالا قطعة نقود من أربعمئة ريس نحو جدار الجمرك، فسقطت قرب قطعة «الشارب اللطيف» وابتسم. ألقى «سكر الشعير» قطعته، فاستقرت القطعة قرب قطعتي بيدرو بالا و«الشارب اللطيف». وكان هذا مقرفصاً، يراقب ويرسل السيجارة من فمه.

- هذا ما يروق لي. لنبدأ بصورة منه.

وتابعوا لعبهم. لكن «الشارب اللطيف» و«سكر الشعير» خسرا قطعتي الأربعمئة «ريس» للعب، وصفعهم بيدرو بالا في جبهته قائلاً:

- أنا شخص محظوظ كما ترى.

من حولهم كانت ترسو زوارق شحن، وكان رجال ونساء يخرجون من السوق. كانوا ينتظرون بفارغ الصبر لظهور هذه الزوارق «حبيب الله الطيب»، وكان بمصارع «الراقص»، ومهنته صياد سمك يعمل في أحد المصائد. وتابعوا لعبهم بالنقود حتى «نظف» بيدرو بالا اللاعبين الآخرين من النقود. كانت البدانة على وجهه تلمع. كان يحب أن يكسب في هذه اللعبة نحو اللعب برغبة. لا سيما حين يكون شركاء اللعب بقوة «سكر الشعير» الذي كان زمناً طويلاً يطيل الجرعة، وبقوة «الشارب اللطيف». وحين انتهوا، قال «الشارب اللطيف» جواباً:

- سوف يفرصني. إنه قرش واحد. لا يبقى لدي فلس واحد.

إثر ذلك، تطلع نحو البحر، والقوارب في المرسى.

- أين «حبيب الله الطيب»؟ سوف يبحر في فترة بعد الظهر. هل سنذهب نحو حوض السفن؟

أجاب «سكر الشعير» بأنه سينتظر «حبيب الله الطيب». لكن بيدرو بالا ذهب مع «الشارب اللطيف» نحو حوض السفن واجتاز شوارع مستوية، وغرسا أقدامهما في الرمل. وكانت سمعة بيدرو من العمر الخامسة، وكان من الناس يرحون ويجيئون. وصل بيدرو بالا و«الشارب اللطيف».

- لا ترغب في أن تكون بحاراً؟

- كم ترى من ... هنا كلا. لا أريد أن أبحر.

- من أنا، فأريد ركوب البحر حين تنطلق مرة صورة الماء العاصفة. أنسيت جيداً؟ ألا تذكر تلك القصة التي قرأها لنا «الأستاذ»؟ والتي فيها عاصفة؟!

- حين، إنها قصة جميلة!

كان بيدرو بالا يتذكر القصة و«الشارب اللطيف» كان يرى من حلقة معدودة بعد. حسب سيكون من السهل جداً، حين يكبر أن يعيش حياة سهلة بملاح قاطع طرق، ملازماً بيدرو، خنجره في حزامه، وقبضته تحت ذراعه، وقاده سمر، عندما على يديه. كانت هذه هي الحياة التي شاهدها حين يسمع من الرحال.

وصلا إلى ... ثمة رجل عمره ٧٠ عاماً كان جون داد م. وهو عامل ميناء زنجي، مسن، ومتصر قديم بالإضرابات، مرهوب الجانب ومحبوب من جميع البحارة. كان جالساً على صندوق. كان يدخن الغليون وعضلاته بارزة تحت القميص. وحين رأى الغلامين حياهما.

- نصراً ... الصديق «شارب اللطيف»، وزعيم بيدرو بالا.

كان يحيي بيدرو بـ«زعيم بيدرو»، وكان يحب الكلام معه، وأفسح مكاناً على صندوقه لبيدرو بالا، ووقف «شارب اللطيف» تجاهه. وإلى جانبه كانت رائحة منبعثة من ثمار البرتقال، ومن البحر، ... وهي تنبعث بصورة شديدة. وقميصاً صغيراً يكشف عن يديه المتصلبين رغم سنه. وكان «الشارب اللطيف» يفحص تلك الرائحة إلى حين كان يتغير رائحة سمكة من شيء.

- هل رأيت ذلك مقدمة مسرح «مرتجلة»، أليس كذلك يا خاله؟

سمعت الرائحة قائلة:

- ولاد الرؤساء هؤلاء لم يعودوا يحترمون الأشخاص الأكبر سناً منهم. أيها الزمن، جون داد م «أنس» منذ قبل اليوم غلاماً بهذه السن، يتكلم عن المهذبين مع عجوز مسنة متى؟

لا تتصوري ستقعد يا خاله، ما زلت تعطيني بصورة جيدة.

ضحكت الرائحة من صميم قلبها، وقالت:

- لقد أفسدت المكان. أيها «الشارب اللطيف»، لقد تجاوزت تلك السن الأولى. وشارب لي جون داد م بعد أن رأيته حين كان ولداً مشاغباً. لقد قاد الإضراب الأول. هنا، في حوض الميناء. في ذلك الزمن، لم يكن أحد من الشياطين يعرف ماذا

معي لاصرب هل ىدكر ىه لصديو؟

هز حان د دام ىـ ، علامة موافقة ، وأغمض عينيه متذكراً الايام البعيدة أيام لاضراب الاول ، لدي نادى على أرصفة الميناء كان هو من اقدم عمال المرفأ ، رغم أنه لم يبد بعد ضعف في السن

وقال سدرو ىلا

- لرجي د ىـ سص شعره ، عشر ثلاثين عاماً مصرورة ثلاثة (١٥)

وكشف الرجعة عن حرتها الصوفية لسصاء ، وذلك بعد أن سحبت عنها المدين لدي كان عقد شعرها ، ومرحها " شارب الطفيف " قائلاً

- هد بصعى هد ىـمديں ، أه يتها الرجعية الملأى بالتصنع

وسأله جان د دام

- هل تدكر رعون ، أيها الام نوير ؟

- الاشعر ، الدي قتل في الاضراب ؟ وكيف لا ؟ أجل ، بني اذكر ! كان حد مدين ، كل يوم بعد الظهر ، لسحادث قليلاً معي كان يحب المزاح

- لقد قتلوه هنا بالذات ، في ذلك اليوم حين سحقت الخيالة العمال

وعصر پدرو بيدرو ىلا ، وسأله

- لم نسمع الحديث عنه أبداً ؟ أيها الزعيم ؟

- كلا

كنت ست حينذاك في الرابعة من العمر بعد ذلك ، قضيت ست عاماً في منزل محصن بعد حرب الى أن هربت وبعد ذلك ، لم نسمع بأسمائهم إلا حين أصبحت زعيماً لفرسان الرمال لكن كيف لم نعلم أنت سوف تتمكن من تدبير شؤونك بنفسك كم عمرك الآن ؟

أخذ بدرو يقوم بحسابات وقاطعه جان داد م

- بت في الخامسة عشرة ، أليس كذلك يا أماه ؟

أجابت الرجعة بالايجاب وتابع جان داد م كلامه

- اليوم الذي شاء ، ت مكتب هنا ، على أرصفة الميناء هنا مكان للعمل ، محجوز لك

(١٥) مثل شعبي برازيلي

- ملاحظة من المترجم -

- لماذا ؟ هكذا سأل « شارب الطفيف » ، الذي اقلقته نظرة بدرو المذهولة

- لأن رعون هو ابوه ، ولأنه مات هنا قتلاً ، مناضلاً من أجلك ، وفي سبيل حقنا نحن لقد كان رجلاً وأكثر كان يساوي عشرة رجال من أولئك الذين نراهم اليوم هنا

- أهو ابي ؟ هكذا سأل بيدرو بالا ، الذي لم يسمع عن هذه القصص ، سوى شائعات غامضة

- بعد موته كان يلقب بـ « الاشقر » ، وحين اندلع الاضراب ، كان يلقي خطبة عنا ، بحيث لا تمكن لا اعتقد أبداً أنه عامل مسالم ، لقد اصيب برصاصة ولكن هنا مكان لك على أرصفة الميناء

كان بدرو بالا يسمح لاسمه بعصاه ونظر إلى جان د دام

- لماذا لم تحدثني بعد عن هذا الامر ؟

- لقد كنت صغيراً بحيث لا تمكن أن تفهم والآن لقد أصبحت الآن رجلاً -

وصحب جان د د م بالتشبع

صحت بدرو بالا هو أيضاً لقد حس بالسعادة بمعرفة قصة أبيه لأن هذا كان رجلاً شجاعاً لكن الاعلام بدرو سال في عمق

وامي ، هل عرفتها ؟

فكر جان د د م برهة ، ثم قال

- كلا ، لست ادري حين تعرفت الى « الاشقر » لم يكن لديه زوجة كنت اعيش معه

أما انا فقد عرفتها

كانت الرجعة هي التي تكلم وقالت لقد كانت امرأة جميلة جداً (شقفة حلوة !) وراحت قصة بان ، بدت قد صقلتها ، وأنها كانت من اسرة غنية من الأعالي ، هناك ، وفارت إلى مدينة بعالية وقد ماتت وكنت أنت لم تتجاوز الشهر السادس من عمرك في ذلك الحين ، كان رعون يعمل في معمل السجائر ، في بتداحيب بعد ذلك ، جاء الى أرصفة الميناء

وردد جان د د م ، مرة اخرى

حين قرر هذا

هز بدرو بالا رأسه بالايجاب ثم سأل

- كان ذلك تتمة هذه ، الاضراب ، أليس كذلك ؟

وراحوا يصغون إلى جان دادام وهو يتكلم عن الاضراب. وحين انتهى، قال بيدرو بالا

- أنا، احب قيادة اضراب. سيكون هذا شيئاً ممتعاً

ودخلت باخرة. فنهض جان دادام واقفاً.

- الآن سنقوم بشحن هذه السفينة الهولندية

كانت السفينة تصفر أثناء مناورات الرسو. ومن جميع الزوايا كان يصل عمال موانئ متجهون نحو العنبر الكبير. ونظر اليهم بيدرو بالا بحنان. كان أبوه واحداً منهم، وقد مات دفاعاً عنهم. كان بينهم، هناك، رجال بيض، وخلاسيون، وزنوج. زنوج كثيرون. انهم سيملأون خزانات السفينة بأكياس الكاكاو، وشحنات من التبغ، والسكر، ومن جميع منتجات ولاية باهيا، هذه المنتجات التي سترحل إلى أوطان نائية، حيث سيقوم رجال مثلهم، وربما طوال القامات، وشقر، بتفريغ السفينة، تاركين خزاناتها فارغة. لقد كان ابوه واحداً منهم. الآن، فقط، أصبح يعرف ذلك ولأجلهم، ألقى خطباً، واقفاً فوق صندوق، لقد قاتل، وأصيب برصاصة حين هاجم الجنود خيالة لعمال المصريين. وربما كان دم أبيه قد سال هنا بالذات، حيث يجلس هو، بيدرو بالا. راح الغلام يحدق في الارض المكسوة الآن بالاسمنت. تحت هذا الاسمنت لا بد أن يكون الدم الذي سال من جسد ابيه. لأجل هذا، فإن مكانه ما زال محجوزاً على أرصفة الميناء، شغله يوم يشاء، بين هؤلاء الرجال. المكان الذي كان لأبيه... حياة شاقة، هذه الحياة مع شحنة ستين كيلوغراماً على الكتفين. لكنه على هذا النحو، سيكون بامكانه ان يقود اضراباً - مثل اضراب اليوم - مثل جان دادام، وأن يناضل ضد الشرطة، وأن يموت من أجل حقوق الآخرين. وهكذا سينتقم لأبيه، ويساعد هؤلاء الرجال في النضال من أجل حقوقهم (كان بيدرو بالا لديه فكرة غامضة عن معنى هذا الامر). كان يتصور نفسه في الاضراب، يقاتل. وكانت عيناه تسهمان كما تسهم عينا...

ودفع حلمه «الشارب اللطيف» الذي كان يمتص البرتقالة الثالثة

هل تفكر في موت المخجمة التي عذبتك، ايها الاخ المخجور؟

نظر... برتغية المحور إلى بيدرو بالا بحنان

- هذا... لأن شعره مجعد، مثل شعر امه. ولولا هذه الندبة على وجهه، ما احتجت إلى صورة، برؤية ريمون، انه... انه رجل وسيم!

ضحك «الشارب اللطيف» بين اسنانه وسأل كم يتوجب عليه ثمناً للبرتقال، ودفع

مثل ريس... ثم نظر مجدداً إلى ثديي الزنجية وسأل:

- أليست لك ابنة، يا خالتي؟

- ولماذا تريد أن تعرف، ايها الناس؟

ضحك «الشارب اللطيف»

- كان باستطاعتي أن اتدبر امري معها.

وقدفته الزنجية بمفردة حدائها العتيق. وتجنب «الشارب اللطيف» الضربة

- لو كان لي بنت، لما كنت لمغازلك، أيها التائه!

ثم تذكرت

الن تذهب اليوم إلى ايمانتو[16]؟ سيكون احتفال عظيم باسم عيد أوموتو

- هل سيكون هناك طعام كثير؟ وشراب «الأبوا»[17]؟

- سيكون منها الكثير

وتأملت في بيدرو بالا، ثم سألته:

- لماذا لا تذهب انت أيضاً، أيها الابيض؟ إن اوموتو ليس فقط قديساً للزنوج انه قديس جميع الفقراء

مد «الشارب اللطيف» يده باشرة تحية، حين تحدثت الزنجية عن أوموتو، الالهة الجدري. كان المساء يهبط. واشترى رجل مرى حزر الهند. واضاءت الانوار بغتة، ونهضت الزنجية. وساعدها «الشارب اللطيف» على وضع طبقها على رأسها. وفي البعيد، ظهر «سكر الشعير» برفقة «حبيب الله القبيح». ونظر بيدرو بالا مرة أخرى إلى الرجال الذين كانوا، على أرصفة الميناء، يشحنون سلالات على السفينة الهولندية. وعلى ظهور الزنوج والخلاسيين العريضة كانت تتلألأ قطرات العرق. وكانت الرقاب منفصلة (بتشديد الصاد وفتحها) تمضي محنية تحت الشحنات. وتكررت الروائح... تور محدثة صيحة شديدة. أن يكون يوماً في اضراب مثل أبيه. النضال والقتال من أجل حق... في أحد الايام، عند باب الميناء، على الارصفة، سوف يستطيع رجل مثل جان دادام أن يروي قصته لأولاد آخرين. كما يروي الآن قصة أبيه. كانت عيناه

(١٦) ايمانتو: أحد احياء باهيا

- ملاحظة من المترجم -

(١٧) ألو Aluá: مشروب باهياني، مصنوع من الزنجبيل ومصنوع من حماض الزنوج.

- ملاحظة من المترجم -

بيدرو بالا تتصاعد بصورة قوية في الليل الذي ساد منذ قليل

ساعدوا «حبيب الله الطيب» في تفريغ صيد السمك، التي كانت جيدة. وقد ساعده بيانغ، واشترى صيدة الأسماك كلها رجل صاحب مسمكة في السوق. اثر ذلك، ذهبوا لتناول الطعام في رستوران قريب. وذهب «سكر الشعير» إلى الأب خوريه بيدرو الذي كان يعلمه القراءة والكتابة. وقبل ذلك، مر الغلام بالمستودع، ليأخذ منه علبة اقلام كان قد نشلها في الصباح، من احدى المكتبات. واتجه بيدرو بالا، و«الشارب اللطيف»، و«حبيب الله الطيب» نحو «كاندوبليه»[18] في «غانتوا» (وهذا الأخير كان أوغناً[19]) حيث ظهرت الآلهة «أوموللو» بثيابها الطقوسية الحمراء، وأعلنت لأولادها الفقراء الصغار الفقراء، أن البؤس سينتهي عما قريب، وأنها سوف تنشر الجدري بين الأغنياء، وأن الفقراء سينالون الغذاء الجيد، وسيكونون سعداء. كانت الأتاباكات[20] تعزف في بلاد «أوموللو». وقد علمت هذه أن يوم انتقام الفقراء. بأن كانت الزنجيات يرقصن، والرجال مبتهجين. أصبح يوم الانتقام قريباً.

راح بيدرو بالا يسير عبر شوارع المدينة بمفرده، اذ أن «الشارب اللطيف» و«حبيب الله الطيب» قد ذهبا يرقصان في حفلة راقصة لزنوج معقرة. ونزل بيدرو في الطرقات المنحدرة المؤدية إلى المدينة السفلى. كان يسير ببطء، وكأنه يحمل ثقلاً في داخله. كان يمضي وكأنه مسحور داخل ذاته. كان يفكر في حديث بعد الظهر هذا، مع جان دي دام، هذا الحديث الذي أبهجه لأنه أصبح يعرف بعد الآن أن أباه كان من شجعان المرفأ، رجلاً ترك قصته. لكن جان داد لم تحدث أيضاً عن حقوق عمال الميناء، ولم يسبق أبداً لبيدرو بالا أن سمع قبلاً حديث عن هذه الحقوق، ومع ذلك فقد مات والده من أجلها. وبعد ذلك، في احتفال ماكومبا في حي غانتوا، قالت الآلهة أوموللو، اللابسة زينتها الحمراء، إن يوم انتقام الفقراء أصبح قريباً. كل هذا كان يرهق قلب بيدرو بالا، كما كانت هذه الأحمال التي يزن كل منها مئتي كيلوغراماً، ترهق صدر حتى المساء.

(١٨) كاندوبليه: عيد، معبد ديني لديانة الزنوج لوسيس. ـ ملاحظة من المترجم ـ

(١٩) اوغان Ogan: عنصر تابع لاحدى كنائس ماكيا الحبشية (شبه الوثنية Fetishism)

(٢٠) اتاباكات، جمع اتاباك atabaque، وهو آلة موسيقية يستعملها الزنوج اثناء احتفالاتهم الدينية. ـ ملاحظة من المترجم ـ

حين وصل إلى أسفل المنحدر، اتجه نحو الرمال محساً بالرغبة بالذهاب إلى المستودع ولرؤية إذا كان سيام قد وسع عند مروره كلب، ظاناً أنه سيتراعى على العظمة التي كان الكلب يقضمها في آخر الطريق. لمح بيدرو بالا شبحاً غامضاً يتحرك. كان كأنه امرأة سارعة الخطى. وتحرك جسمه، جسم الغلام الفتي كما يتحرك حيوان قبل لرؤية انثى، وبخطوات سريعة. اقترب من امرأة التي كانت الآن تدخل إلى ناحية الرمال وأن الرمل تحت قدميه. ولاحظت المرأة أن هناك من يتبعها. وكان بيدرو بالا يستطيع أن يراها جيداً حين كانت تمر تحت ضوء الفوانيس. كانت زنجية صغيرة فتية تماماً، في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، ربما في مثل سنه. لكن نهديها كانا يحسسان حادين، ونهديها ترقصان تحت الثوب. ذلك لأن الزنجيات حتى حين يمشين بخطوات ضعيفة، يبدو أنهن يرقصن. وسادت الرغبة لدى بيدرو بالا، رغبة تضاف الى امنية يحس بها الحقد العنيف الذي يثقل على صدره. ولدى تفكيره بتلك الزنجية الصغيرة لوماسير، لم يعد يفكر في موت أبيه المدافع عن حقوق العمال المضربين، ولا في الآلهة اوموللو الداعية إلى الانتقام في احتفال العيد ولباس الفقراء. كان يفكر في القاء الزنجية الصغيرة على الرمل الناعم، وبمداعبة نهديها القاسيين (ربما كانا نهدين بكرين، وهما على كل حال نديان صغيران) وبامتلاك جسدها الدافىء، جسد الزنجية.

وسارع في خطاه، لأن الزنجية الصغيرة كانت تبتعد عن الطريق التي تحاذي الرمال، للدخول في هذه الرمال، متعمدة، أي الفتاة، عن مركز الاضاءة. ولكن حين لاحظت أن بيدرو بالا يصبح في كل مرة اقرب اليها، انطلقت إلى الامام، شبه راكضة. وفهم بيدرو أنها ذاهبة نحو احدى هذه الطرق القائمة وراء المستودع، الضائعة بين الحقل والبحر. وأنها، إذا كانت تختار ناحية الرمال، فذلك لتقصير الطريق. والفرار منه بسهولة أكثر. كان الصمت يسود المرفأ كله، وزئير الرمل وحده تحت الخطى كان يجعل قلب الزنجية الصغيرة يرتعش من الرعب، وقلب بيدرو بالا ينبض لشدة الشهوة لكنه، عند كل خطوة، كان يدنو اقرب اليها، وبعد عشر خطوات، سوف يصل اليها. وكان عليها ان تسير كثيراً قبل أن تصل إلى المستودعات القائمة وراء الرمال والطرقات المتاخمة لها. كان بيدرو يبتسم، عابراً عن أسنانه. مثل حيوان مفترس يطارد في الصحراء حيواناً آخر يريده طريدة له.

وحين كاد يرفع يده ليمس كتفها ولتدير وجهها نحوه، راحت الزنجية الصغيرة تركض. فعدا بيدرو بالا في أثرها، وأدركها بعد قليل. لكنه كان ينطلق بسرعة كبيرة بحيث أنه اصطدم بها، وتدحرج الاثنان على الرمل. ونهض بيدرو بسرعة،

ضاحكاً، وأصبح قربها، وهي تستعد للنهوض

- لا داعي لوقوفك يا جميلة، وضعك جيد هكذا

- ماذا تريد مني؟

- لا تتحركي، إنها السمراء سوف نتحدث قليلاً

امسك بذراعيها، وقلبها ثابتة على الرمل. واجتاحها الخوف مجدداً، خوف مجنون. كانت قادمة من بيت جدتها، وعائدة إلى بيتها، حيث تنتظرها أم وأخوات. لماذا تأخرت حتى الليل، ولماذا جازفت بالسير على رمال المرفأ؟ ألم تكن تعلم أن رمال الميناء هي سرير الحب لجميع اللصوص، وجميع البحارة، وجميع «فرسان الرمال»، وجميع الذين لا يستطيعون أن يحصلوا على امرأة في ظروف طبيعية، والذين يتعطشون إلى جسد في مدينة باهيا المقدسة. لم تكن تعرف شيئاً من هذا، كانت بالكاد في الخامسة عشرة من العمر. وكانت قد سمعت بمتع النساء منذ زمن وجيز. وبيدرو بالا كان هو أيضاً بالخامسة عشرة، ولكن منذ زمن طويل أصبح يعرف ليس فقط الرمال وأسرارها، بل أيضاً جميع أسرار الحب، وذلك لأنه إذا كان الرجال يعرفون هذه الأسرار قبل أن تعرفها النساء، فإن «فرسان الرمل» كانوا يعرفونها قبل أي رجل آخر.

كان بيدرو بالا يريد الفتاة لأنه، منذ زمن طويل، كان يحس رغبات الرجل، وكان يعرف مذ عذاب الحب. وهي لم تكن تريد ذلك لأنها أصبحت امرأة منذ زمن قليل، وهي تسعى لأن تكرس جسدها لخلاصي تتمكن من الحصول على حبها. ولم تكن تريد تسليم نفسها هكذا لأول عابر طريق تلتقي به على الرمل. وظلت عيناها مطفأتين من الخوف. وأمر بيدرو بالا يده على شعر الزنجية الصوفي

أنت «شقفة رائعة» يا سمراء. سوف نصنع نحن الاثنين ولداً صغيراً جميلاً

وصارعت بلا جدوى

- دعني، دعني أيها البائس

وراحت تنظر حولها لترى إذا كان هناك شخص تستنجد به، وتستطيع أن تطلب عونه، شخص يساعدها للاحتفاظ بهذه البكارة التي قيل لها إنها ثمينة. ولكن، في الليل، على رمل ساحل باهيا، لا يرى شيء، باستثناء الأشباح، ولا تسمع سوى تنهدات الحب، وتساقط أجساد متعانقة على الرمل.

أخذ بيدرو بالا يداعب ثدييها، وكانت هي، من أعماق الرعب، تحس بنشوء خيط من الرغبة مثل خيط ماء يجري عبر جبال، ويمضي متزايداً، شيئاً فشيئاً إلى أن يتحول إلى نهر قوي. وهذه الرغبة زادت من رعبها. فإذا لم تتصلب ضد الرغبة، واستسلمت

للامتلاك، حينئذ سوف تفقد كل شيء. وستترك على الرمل بقعة من الدم سيضحك منها عمال الميناء في صباح اليوم التالي. إن رضوخ ضعفها منحها تجدد وقوة، وقدرات جديدة. فحصت رأسها، وعضت يد بيدرو الذي كان يمسك ثديها. أطلق بيدرو صرخة، وسحب يده، ونهضت هي وراحت تركض. لكنه أدركها، والآن أصبحت عينه ممزوجة بالغضب

- سوف ننتهي من قصة هذا الشتاء الذي لا يبلل. وحاول أن يطرحها

- دعني أذهب، يا شقي الحظ. أنت تريد أن تحدث لي شقاء. بائس يا ابن أمك الحقير. دعني أذهب، فأنا لا علاقة لي بك

كان بيدرو لا يحب... كان يعرف أخريات يتظاهرن بالرفض، بصورة عامة لأنهن كان لهن عشاق ينتظرونهن. ولم يفترض، لحظة واحدة، أن الزنجية الصغيرة كانت عذراء. لكنها كانت تقاوم، وتثقله بالشتائم، وتعضه، وتضرب بيديها الضعيفتين صدر بيدرو بالا

- ولكن ماذا تطلبين، أيتها الزنجية؟ هل تعتقدين أني سأدعك تهربين دون أن تسلمي؟ لا تنادي، إن رجالك لن يعرف أي شيء. ولا أحد سيعرف أي شيء. وستزين منذ معي عناق رجل حقيقي

أخذ الآن يحاول مداعبتها. كان يريد أن يسيطر على غضبها، ويجعلها تحس بالرغبة. كانت يداه تنزلقان على جسدها، ومددها بالقوة. والآن أخذت تردد مثل لازمة

- دعني أيها البائس، دعني

وشعر بثورتها البائسة، ثورة هادئة، وظهرت ساقا الزنجية الملساوان. لكن إحداهما كانت على الأخرى، وحاول بيدرو بالا أن يباعد بينهما. وراحت الزنجية الصغيرة تقاوم من جديد، ولكن نظراً لأن الغلام كان يداعبها، ولأنها كانت تحس بصعود الرغبة العارمة، كفت عن شتمه، لكي تتوسل إليه برجاء قلق

- دعني، إني عذراء. كن طيباً ولا تمتلكني. سوف تجد امرأة سواي. أنا بكر، وسوف تؤلمني

نظر إليها. كانت تبكي من خوف، وكذلك لأن إرادتها كانت تضعف، وانتصبت حلمتا ثدييها

- أنت عذراء؟ هل هذا صحيح؟

- أقسم على ذلك بالله، وبالعذراء مريم، وأخذت تقبل أصابعها موضوعة بشكل صليب

تردد بيدرو بالا
بهذه الرغبة الصغيرة ... ، وبقاهة الصلتان ، وحصة الفرح
هل تقول الصحيح؟
ـ الصحيح أن تقسم على ذلك دعني أذهب أمي تنتظرني
كانت تبكي . وبيدرو يحس بالألم لكن الرغبة كانت قد سيطرت عليه وحينئذ
فرح عندما قال لها دون الرغبة (وكان لسانه يدعوها)
ـ فقط من خلف
ـ لا ، لا
ـ ستظلين عذراء تماماً إنه أمر بسيط
ـ لا ، لا هذا يسبب الألم
لكنه كان يلاطفها ، وارتعش جسدها كله برعشة رغبة حينئذ بدأت تفهم أنها إذا
لم ترضه كما طلب ، فستفقد بكارتها وحين وعدها ، كان لسانه يبحث في أذنها
ـ إذا حدث ذلك لك الآن ، فسوف انسحب
واقفاً
ـ أتقسم بأن ذلك لن يكون من الأمام؟
ـ أقسم
ولكن بعد أن قضى وطره منها أول مرة (وقد صاحت ، وعضت يديها) وإذ رأى
أن الرغبة ما زالت مسيطرة عليها ، حاول أن يفض بكارتها لكنها أحست بذلك
فوثبت مثل محمومة
ـ أنا أكتشف أيها الدنس أنك عبثت معي هل تريد إزالة عصبيتي؟
وأجهشت تبكي بصوت عال ، ورفعت ذراعيها ، حتى شبهت محمومة ، كانت
صيحاتها ، ودموعها ، وشتائمها ضد رغبته وفرسان الرمال ، تشكل دفاعها الوحيد
ولكن بالنسبة لبيدرو ، كان أكبر دافع للرغبة هو هاتان العينان المفعمتان بالرعب ،
عندما حاول أضعف ، ليست لديه قوة الدفاع عن نفسه ونظراً لأن الشطر الأساسي من
شهوته قد أرضي ، ونظراً لأن قلق بداية الليلة هذه قد استولى عليه من جديد ، فقد
قال لها
ـ إذا تركتك ، هل تعودين غداً؟
ـ سأعود ، نعم
ـ لن أفعل لك إلا ما فعلته اليوم وسأتركك عذراء

هزت رأسها بالإيجاب كانت عيناها عينا محمومة وفي هذه اللحظة لم تكن تحس إلا
بالألم ، وبالرعب وبرغبة في الفرار والآن ، حين لم تعد يداه ، ولا شفتاه ، ولا قضيب
بيدرو تلامس جسدها ، فقد انطفأت رغبتها ، ولم تعد تفكر إلا بحماية بكارتها
وتحسست الصعد ، حين قال لها
ـ الآن ، تستطيعين الذهاب ولكن إذا لم تعودي في الغد حين سأقص عليك
ستعرفين بأي حس تربط العبرة
أخذت تسير ، دون أن تجيب بشيء لكن الغلام لحق بها .
ـ سأرافقك ، لكي لا يعترض سبيلك لص ما
سارا معاً ، وأخذت تبكي كان يريد أن يمسك بيدها ، لكنها منعت ، وابتعدت
عنه حاول مجدداً ومجدداً سحبت يدها حينئذ صاح
ـ ماذا بك هذه ، بحق الشيطان!
وسارا واليد باليد كانت تبكي ، وهذا البكاء ، أثار قلق بيدرو بالا ، مجدداً تذكر
في ساعات الليل الأولى ، ورؤية أبيه الذي سقط في النضال ، ورؤى الأمهات اللواتي التي
علمت بعه الانتقام وراح يلعن في دخيلته نساء سائر المدينة ، وسارع في خطوه ،
للوصول في أسرع وقت إلى مدخل الطريق كانت تبكي بمرارة ، فقال لها في غضب .
ـ ماذا حدث لك؟ لم يحدث لك شيء
كتفت بالنظر إليه وكانت عيناها (مع أنها كانت ما تزال تسير إلى جانبه ، وأنها ما
زالت مرتعبة) مفعمتين بالغضب ، والازدراء خفض بيدرو رأسه ، ولم يعد يدري ما
يقول ولم يعد في قلبه لا الرغبة ولا الغضب ، بل فقط الأسى وسمع حين سماعها كان
رجل نفسه في الشارع واشتد بكاؤها ، وراح هو يضرب الرمل بقدميه الآن كان
يحس بأنه أكثر ضعفاً منها ، وكانت يد الرغبة الصغيرة تثقل يده ، وكأنها من
رصاص ترك اليد فابتعدت الفتاة عنه ، فلم يحتج كان يتمنى لو أنه لم يلتق بها ولو
أنه لم يلق بها حال ذلك ، ولو أنه لم يذهب إلى حي غامبوا
ووصلا إلى الطريق ، وقال لها
الآن تستطيعين الذهاب لن يسيء إليك أحد ونظرت إليه مجدداً بغضب ،
وراحت تركض ولكن عند أقرب زاوية من الطريق ، توقفت ، والتفتت نحوه ،
(وكان ما يزال ينظر إليها) وانهالت عليه بالشتائم واللعنات ، بصوت ملأه خوفاً
ـ عسى أن تقتلك الطاعون والجوع والحرب ، أيها الشقي وليعاقبك الله ، أيها الشقي ، يا
ابن النجس ، الدنس ، البائس كان صوتها المفرد يعبر الطريق ، ويثير قلق بيدرو بالا

أما هي، فقبل أن تختفي عند منعطف الشارع، نعقت على الأرض، في ازدراء شديد جداً وكررت قائلة

- شقي شقي

لبث ساكناً في البدء، ثم انطلق راكضاً عبر الرمال. وكان منطلقاً كأن الرياح تسوطه. وكأنه يفر من لعنات الزنجية الصغيرة. وكان يحس برغبة في الارتماء في البحر لكي يغسل نفسه من كل هذا القلق، وبالرغبة في الانتقام من الناس الذين قتلوا أباه، بها العصا، التي يحس بها ضد المدينة لعينيه، التي كانت تمتد في الجانب الآخر من البحر، في أحياء «الحاجر»، و«النصر»، و«النعمة». ويأس حياته كولد مشرد، تخلى عنه أهله، ولد مطارد (ممسح الرأس)، ولأم الذي كان يحس به ازاء الزنجية الصغيرة المسكينة، التي هي ولد أيضاً

«ولد، هي أيضاً». هذا ما كان يسمعه في صوت الرياح، وفي الساما التي يغنيه رجل مجهول، وصوت يقول ذلك في نفسه

مغامرة أوغون

في ليلة أخرى، ليلة شتوية قاتمة، لم يكن الصيادون حيالها يغامرون بركوب البحر، لشدة غضب يماغا وكسانغو، في حين كانت ومضات البرق هي الضوء الوحيد في السماء، المسدة بغيوم ثقيلة وسوداء، ذهب بيدرو بالا، و«دورا» الرحل الرحوة، وجواو غراندي، لمرافقة الماي - دي - سانتو دون آنينها، إلى منزلها البعيد. وكانت قد جاءت إلى المستودع في فترة بعد الظهر طالبة منهم خدمة ما، وفي حين كانت توضح ما تريد، حل الليل، مذهلاً ورهيباً.

- لقد غضب أوغون قالت الماي - دي - سانتو هذه موضحة

وهذا هو السبب نفسه الذي قادها إليهم. وأثناء مداهمة الشرطة لأحد المعابد - الذي، وإن كان ليس هو معبدها، لأنه ما من شرطي يتجاسر لمداهمة معبد آنينها - فهو موضوع تحت حمايتها - استولت الشرطة على صورة أوغون، التي كانت موضوعة على مذبح معبده. وقد استخدمت دون آنينها كل سلطتها لدى أحد الحراس لكي يستعيد القديس. بل لقد ذهبت إلى منزل سناد في كلية الطب، صديقها، الذي كان يأتي لدراسة الدين الزنجي في معبدها، فدفعته إليه إعادة إلهه. وكان البروفيسور يعتقد تماماً أنه سيحصل من الشرطة على إعادة الصورة، ولكن لكي يضيفها إلى مجموعته من الأوثان الزنجية وليس لإعادتها إلى مذبحها في المعبد البعيد. هذا السبب، ولأن أوغون كان في غرفة المعتقلين في مركز الشرطة. فإن كسانغو، في تلك الليلة، كان يطلق بروقه العاصفة. وفي النهاية جاءت دون آنينها إلى حيث يقيم «فرسان الرمال». أصدقاؤها منذ زمن طويل، لأن جميع الزنوج، وجميع فقراء باهيا هم أصدقاء الماي - دي - سانتو وكان لديها لكل منهم، كلمات ودية وأمومية. إنها تشفي المرضى، وتجمع العشاق، ورقى سحرها تقتل الأشرار. وأوضحت ما حدث لبيدرو بالا. لم يكن زعيم «فرسان الرمال» يرتاد المعابد الشعبية كما أنه لم يكن يصغي إلى دروس الأب جوزيه بيدرو لكنه كان على حد سواء، صديق الكاهن، وصديق الماي - دي - سانتو، وعند «فرسان الرمال»، حين كان هناك صديق، يخدمون هذا الصديق

والآن كانوا يرافقون آنينها إلى مسرها. كان الليل حولهم مضطرباً ومفعماً بالغضب. وكان المطر يخفي اجسامهم تحت مظلة الماي - دي - سانتو البيضاء الكبيرة. وكانت طبول المعابد الشعبية تدق بايقاع لرد الاهانة التي الحقت بأوغون، وربما في أحد هذه المعابد، أو في العديد منها، كانت أومولو تبدو بانتقام الناس الفقراء. وتابعت دون آنينها بصوت مرير.

- انهم لا يدعون الفقراء يعيشون. وهم لا يتركون اله الفقراء في سلام. الفقير لا يستطيع أن يرقص، ولا أن يرتل لإلهه، ولا أن يطلب نعمة من إلهه.

كان صوتها مريراً. صوت لم يكن يبدو أنه صوت ماي - دي - سانتو دون آنينها. وتابعت تقول: إنهم يكتفون بترك الفقراء يموتون من الجوع. فالآن ينتزعون القديسين من الفقراء... ورفعت قبضتها.

احس بيدرو بالا بموجة تعصف في دخيلته. لم يكن الفقراء يملكون شيئاً. كان الاب جوزيه بيدرو يقول إن الفقراء، سيذهبون في يوم من الأيام الى ملكوت السماوات، حيث سيكون الله واحداً بالنسبة للجميع. لكن عقل بيدرو بالا الفتي لم يكن يجد أية عدالة في عدم... في مملكة السماوات الجميع سيكونون متساوين. لكنهم على الارض ليسوا كذلك. فكفة الميزان تميل دائماً إلى جانب معين.

نشد من أمام الاغوغوات والأتاباكات[21] التي كانت ترد الاهانة الملحقة بأوغون، كانت لعنات ماي - دي - سانتو دون آنينها تملأ الليل. وكانت دون آنينها ذات القامة الطويلة والنحيفة، تمثل نموذجاً ارستقراطياً للزنجية، وكانت تحسن ارتداء ثياب الزنجيات الباهيانيات، افضل من أية امرأة أخرى. كان وجهها مرحاً، مع أن نظرة واحدة منها كانت كافية لان توحي باحترام مطلق في هذا. كانت تشبه الأب جوزيه بيدرو. لكنها الآن كانت ذات هيئة مفزعة، ولعناتها ضد الاغنياء وضد الشرطة كانت تملأ الليل دهياً. وقبل بيدرو بالا

وحين تركها... محاطة بـ «بنات القديسات»، اللواتي كن يقبلن يدها، وعدها بيدرو بالا قائلاً:

- لا تهتمي، يا أماه دون آنينها. غداً سوف اعيد اليك أوغون.

(٢١) الاغوغوات والاتاباكات: جمع اغوغو وأتاباك، وهما آلتان موسيقيتان يستخدمهما الزنوج في احتفالاتهم الدينية. - ملاحظة من المترجم -

ضربت يدها على رأسه الأشقر. وابتسمت. وقبل جواو غراندي و«ذو الرجل الرخوة» يد الزنجية، وهبطوا جميعاً طريق التل، وكانت الاغوغوات والاتاباكات تصدح لغسل الاهانة التي لحقت بأوغون.

إن «ذا الرجل الرخوة» من جهته، لم يكن يؤمن بأي شيء، لكنه كان يريد خدمة دون آنينها، وسأل:

- ماذا ستفعل؟ إن «الصاعقة» هي مع الشرطة.

صفق جواو غراندي. وقد انتابه خوف ما.

- لا تقل عن أوغون إنه «صاعقة» يا «ذا الرجل الرخوة».

ومزح «ذو الرجل الرخوة» قائلاً:

- إنه سجين فهو لا يستطيع أن يفعل أي شيء.

غضب جواو غراندي، ذلك لأنه كان يعلم أن اوغون قوي جداً، وانه، حتى وهو في السجن، يستطيع أن يعاقب «ذا الرجل الرخوة». وحث بيدرو بالا دفعه، وطلب سجارة.

- دعني احتر هذه المسألة. هناك حسابات يجب أن نؤديها. لقد وعدنا دون آنينها والآن يجب أن نقوم بذلك.

نزلوا نحو المستودع. كان المطر يدخل عبر ثقوب السقف. وكان أكثر الغلمان يتكدسون في الزوايا، حيث السقف غير مثقوب. وقد حاول «الاستاذ» اشعال شمعته. لكن الريح بدت أنها تلاعبه فكانت تطفئ الشمعة لحظة بعد لحظة. وفي النهاية تخلى عن القراءة. وبهجت في لعبة «السمة والنصف» مع «القط» الذي كان يشرف على الصندوق، يساعده «الشارب اللطيف» في احدى الزوايا. وكانت قطع العملة تتدحرج على الأرض، ولكن لم يكن بوسع اي صوت أن يلهي «سكر الشعير» عن صلواته أمام العذراء مريم، والقديس أنطوان.

في ليالي الشتاء هذه، لم يكن في استطاعتهم النوم. وخطة بعد أخرى، كان وميض برق يضيء المستودع، وحينئذ كانت تظهر الوجوه النحيلة والقذرة لـ «الفرسان الرمال». وكان كثيرون منهم صغاراً، بحيث أنهم كانوا يخافون التنانين والمسوخ الأسطورية. وكانوا يلوذون بالاكبر منهم سناً، الذين لم يكونوا يخشون سوى البرد والنعاس والجوع. وهم متزوجون. كانوا يسمعون عبر دوي الرعد، صوت كاساعو وبالنسبة للجميع، كانت ليالي العاصمة هذه، رهيبة مفزعة. وحتى «القط»، الذي كان لديه صدر امرأة يريح عليه رأسه الصبياني، كانت ليالي العاصمة ليالي سيئة. لأنه في

هذه الليالي، كان رجال ـ في المدينة ليس لديهم لكي يريحوا رؤوسهم الخائفة، سوى سرير رجل غريب، وهم يريدون إغراق رعبهم في صدر امرأة ـ في هذه الليالي، كان رجال يدفعون المال لينامو مع «دالفا»، ويدفعون جيداً. وهكذا، ظل «القط» في المستودع، موبياً الصندوق، مع أوراقه المريضة، يعاونه في الممشى «الشارب اللطيف». كانوا يجلسون كلهم، مجتمعين قلقين، لكنهم كانوا وحدهم مع ذلك، يحسون بأنه ينقصهم شيء ما، وليس فقط سرير دافئ في غرفة مقفلة جيداً، بل أيضاً الكلمات حنون من أم أو من أخت، تذيب خوفهم. كانوا يتجمعون مكدسين بعضهم إلى جانب بعض، وبعضهم يرتجف من البرد، تحت قمصانهم وبنطالاتهم الممزقة. وآخرون كانوا يلبسون سترات صغيرة مسروقة، أو ملتقطة عن المزابل، وهي سترات يستعملونها كمعاطف. لكن كان لدى «الاستاذ» معطف كبير جداً، بحيث كان يكنس به الأرض.

في أحد الأيام، وكان ذلك في الصيف، توقف رجل، وكان يرتدي معطفاً كبيراً، ليشرب مرطبات في أحد مطاعم المدينة. كان يبدو أنه غريب. كان ذلك في منتصف فترة بعد الظهر، وكان الحر يشوي الأجساد. لكن الرجل كان يبدو أنه لا يحس بالحر، لابساً معطفه الجديد. واعتبر «الاستاذ» أن منظر الرجل طريف، وقد أعجبه منه بوجه خاص، شكل رأسه الغريب. وبدأ يرسم هذا الرجل (مع معطف هائل الضخامة، أكبر من الرجل)، وذلك بالطبشور، على الرصيف. وكان «الاستاذ» يضحك بسرور، لأن الرجل، ربما سيعطيه قطعة ذات الألفي ريس. واستدار الرجل على كرسيه، ونظر إلى الرسم، شبه المنتهي. وكان «الاستاذ» يضحك إذ كان يرى الرسم ممتازاً، مع هذا المعطف الذي يسيطر على الرجل، ويعلو على أمره. لكن الرجل لم يتذوق المسألة، واستولى عليه غضب شديد، فنهض عن كرسيه، ولبط «الاستاذ» لبطتين فأصابت إحداهما الغلام في خصره، فتدحرج على الرصيف وهو يئن. ووضع الرجل أيضاً قدمه على وجه الصبي، وقال له وهو يبتعد محتقن الوجه:

ـ خذ أيها الأزعر، لتتعلم أن تسخر من الناس.

وانطلق وهو يرن النقود في كفه، بعد أن محا الرسم نصف محو. وهرعت الخادمة وساعدت «الاستاذ» على النهوض ونظرت باشفاق إلى الرسم وقالت:

ـ يا مسكين! رغم أن الرسم مشابه له، إنه أحمق!

ودست يدها في جيبها، حيث كانت تحتفظ بما نالته من بقشيش، وأخرجت قطعة ألف ريس. وأرادت أن تعطيها لـ«الاستاذ» لكنه رفضها، كان يفكر أنه بحاجة

إليها، لكنه لم يستطع أخذها، وأخذ يتأمل في الرسم شبه الممحو، وتابع طريقه، ويداه على جنبه. كان يسير دون أن تراوده أية أفكار، وبغصة في صدره. لقد أراد أن يرضي الرجل، ورأى أنه يستحق قطعة نقود منه. وقد تلقى لبطتين، وكلمات فظة. لم يكن يفهم لماذا هم مكروهون هكذا في المدينة؟ إنهم أولاد فقراء، بدون أب ولا أم. فلماذا يكرههم هكذا أولئك الرجال ذوو الملابس الجيدة؟ مشى يرافقه ألمه، ولكن حدث أنه التقى من جديد في الصحراء المرمية تحت الشمس، على طريق المستودع، بعد فترة قصيرة، بالرجل ذي المعطف. كان يبدو أنه يتجه نحو إحدى السفن الراسية في المرفأ. وكان، الآن، يحمل معطفه على ذراعه، ذلك لأن الشمس كانت محرقة. استل «الاستاذ» سكينه (وكان نادراً ما يستعمله) واقترب من الرجل. وكان الحر قد أبعد عن الرمال جميع الناس. وكان الرجل ذو المعطف يمر عبر الرمال، ليقصر الطريق المؤدية إلى المرفأ. وانسل «الاستاذ» في صمت وراء الرجل، وحين أصبح قريباً منه، انتصب أمامه، وفي يده السكين. إن مجرد رؤية الرجل قد حولت متاهة مشاعره إلى شعور وحيد: الانتقام. ونظر إليه الرجل مرتعباً. كان «الاستاذ» يفكر في مواجهته، وسكينه في يده، وهمس من بين أسنانه:

ـ ليك عني، أيها اللص.

تقدم «الاستاذ» مع سكينه، وامتقع وجه الرجل:

ـ ماذا يعني هذا؟ ماذا يعني هذا؟ وراح ينظر في كل ناحية، آملاً بأن يرى ظهور شخص ما. ولكن على أرصفة المرفأ البعيدة، كان يرى رجالاً بعيدين أيضاً. حينئذ راح الرجل ذو المعطف يجري لكن «الاستاذ» وثب عليه وطعن يده بسكينه، فألقى الرجل معطفه على الأرض، وكان الدم يسيل من يده على الرمل. وانطلق «الاستاذ» في اتجاه معاكس. وفي لحظة لا يدري ماذا يفعل. لن يلبث حارس أن يظهر، ثم سينضم له حراس كثيرون يشتركون في مطاردته مع الرجل. وإذا كانت سفينة الرجل ستبحر فوراً، فإن كل شيء سيكون على ما يرام. وستكون المطاردة قصيرة الأمد. ولكن إذا تأخرت السفينة في الرحيل، فسيطارده الرجل بالتأكيد، إلى أن يدركه، ويودعه السجن. وحينئذ تذكر «الاستاذ» الفتاة خادمة المطعم، فاتجه نحوه، ومن الحديقة المواجهة للمطعم، أشار إلى الفتاة بأن تأتي. فركضت الفتاة نحوه، وفهمت بسرعة حين رأته ومعه المعطف. وحذرها «الاستاذ»:

ـ هناك جرح في يده.

ضحكت الفتاة

ـ لقد استقبت أليس كذلك؟ وأخذت المعطف إلى المطعم، ووضعته في مكان أمين، واختفى «الاستاذ»، إلى أن عرفت القصة. لكن «الاستاذ» كان يتابع من مكانه، حركة الحرس عبر الرمال، وفي الطرقات المجاورة. على هذا النحو حصل «الاستاذ» على المعطف، الذي لم يرد بيعه أبداً. بعد كسب معطفاً وكثيراً من النعص، وبعد ذلك بأعوام، حين أدهشت لوحاته الجدرانية الكبيرة، البلاد (كانت تمثل موضوعات عن حياة أولاد مشردين، ومسيريين كسر السن، وشغيلة وعمال مرفىء يقومون بهدم السجون)، وقد لوحظ أن النور حواريين الضخام الاجسام، كانوا يظهرون دائماً في رسوم «الاستاذ»، مرتدين معاطف ضخمة، تتمتع بشخصية أكثر من لابسيها. دخل بيدرو بالا، وجواو غراندي، و«ذو الرجل الرخوة» إلى المستودع، واتجهوا نحو الجماعة التي كانت تلعب حول «القط». وحين وصلوا توقف اللعب لحظة، وألقى «القط» نظرة على الثلاثة.

ـ هل تلعبون لعبة النصف؟

فأجاب «ذو الرجل الرخوة»:

ـ وهل تظهر على شيء مثله؟

جلس جواو غراندي يراقب. وابتعد بيدرو بالا مع «الاستاذ» إلى إحدى الزوايا. كان يريد ايجاد وسيلة لانتزاع صورة أوغوب من الشرطة. وتناقشا طويلاً من الليل، وكانت الساعة الحادية عشرة تدق، حين خاطب بيدرو بالا، قبل خروجه، جميع «فرسان الرمال»:

ـ أيها الاصدقاء، سوف ترون أنا بضربة قوية. فإذا لم أحضر إلى هنا غداً صباحاً فسأكون في المخفر، وسوف يدفعونني لكي أنتقل إلى دار الاصلاحية. سوف أقول لكم سيفهمون بأخرجي من هناك.

وخرج ورافقه جواو غراندي حتى الباب، وانضم «الاستاذ» مجدداً إلى «القط». كان الغلمان الاصغر سناً ينظرون إلى رحيل زعيمهم بشيء من الخوف. لقد وضعوا في بيدرو بالا ثقة كبيرة، وبدونه، كثيرون منهم لا يعرفون كيف يتدبرون أمورهم. وخرج «سكر الشعير» من زاويته، قاطعاً صلاته:

ما هي المسألة؟

ـ ذهب بيدرو للقيام بمهمة صعبة، فإذا لم يعد في الغد، فذلك يعني أنه قد قبض عليه.

ـ سوف نخرجه من السجن! هكذا قال «سكر الشعير» بلهجة طبيعية، وما كان

يمكن أن يقال انه قبل دقائق كان يصلي، أمام صورة العذراء، لخلاص روحه الصغيرة، روح اللص. وعاد إلى قديسيه، ليصلي من أجل بيدرو بالا.

واستؤنف لعب الورق. في الخارج كان المطر وومضات البرق، والرعد والسحب في السماء، كان برد شديد يسود المستودع. وقطرات من الماء تتساقط على الأولاد الذين كانوا يلعبون. لكن اللعب، الآن لم يعد يستأثر باهتمامهم. و«القط» هو نفسه كان ينسى أن يكسب، وفي المستودع كان يسود نوع من الارتباك. وقد استمر ذلك إلى أن قال «الاستاذ»:

ـ سوف اذهب لارى ماذا يحدث.

وقد رافقه جواو غراندي، و«القط». في تلك الليلة، كان «سكر الشعير» هو الذي رقد عند باب المستودع، والخنجر تحت رأسه. وقربه، كان «ذو الكوع الناشف» يسبر غور الظلام بوجهه القاتم. وكان يتساءل عمن يمكن أن يكون، في هذا الليل المظلم، جماعة لامبيو. ربما كانت، في هذه الليلة العاصفة، تقاتل الشرطة كما سيفعل بعد قليل بيدرو بالا. وكان «ذو الكوع الناشف» يعتقد بأن بيدرو بالا حين سيمتنع عن الرحال، سيكون مثل شجاعة لامبيو. كان لامبيو سيد البر الداخلي، وسيد السهوب التي لا نهاية لها. وسيكون بيدرو بالا سيد المدينة، والمدن والشوارع، وأرصفة الميناء. وأن «ذا الكوع الناشف» الذي هو من البر الداخلي، يستطيع أن يمضي عبر السهوب، وعبر المدن، لأن لامبيو كان عرابه، وبيدرو بالا صديقه. وعند صباح الغد، كانت تلك الشرة إلى أن «ذا الكوع الناشف» كان سعيداً.

حين كان بيدرو يرقى جانب الجبل، كان يستعيد تفاصيل خطته. لقد وضعها مع «الاستاذ»، وهي من بين جميع العمليات التي جازف بها، كانت العملية الحالية أكثرها خطراً. لكن الدون آنينيا تستحق أن يتعرض هذه المخاطرة من أجلها. فحين كان يمرض أحدهم، كانت تحضر الادوية المصنوعة من أوراق نباتات، وتعتني به، وفي كثير من الاحيان تشفيه. وحين كان يظهر في أرضها غلام من «فرسان الرمال»، كانت تعامله كرجل، وتعطيه أفضل ما عندها من طعام وشراب. كانت الخطة مجازفة، وربما لن تعطي أية نتيجة. وبيدرو بالا، بعد أن يدخل السجن بضعة أيام، سينتهي به الامر إلى الاصلاحية، هناك حيث الحياة أشد بؤساً من حياة الكلب. ولكن كانت هناك فرصة لأن تنجح الخطة. وسيلعب بيدرو بالا لعبة الكل بالكل على هذه الامكانية.

ووصل إلى ساحة «المسرح». كان المطر يهطل، ورجال الشرطة يتقون المطر بمعاطفهم. وراح بيدرو يرتمي على مهل، طلعة ساو ـ بنتو، وسط الطريق عبر ساو

بيدرو، وحاز ساحة «السداد»، وسلك شارع روزاريو؛ والآن أصبح أمام «المركز الرئيسي للشرطة»، يراقب النوافذ وتحرك رجال الشرطة، والمفتشين الذين كانوا يدخلون ويخرجون بين دقيقة وأخرى، كان يمر ترام، دافعاً القضبان الحديدية إلى الصرير، وأتت من صالة الشارع المضاءة صلاة وقد اسمعه الحارس وهو صديق دون أنسها. أن «أوعون» موجود في قاعة المفتشين، ملقى على حرامة، في وسط أشياء أخرى مسروقة. صودرت أثناء مداهمات مختلفة قامت بها الشرطة لمنازل لصوص وفي هذه القاعة. كان يوضع أولئك الذين اعتقلوا أثناء الليل، قبل أن يجري استجوابهم سواء من قبل المندوبين، أو من قبل مفوضي الخدمة، والذين يجري أرسالهم بعد ذلك إما إلى السجون، وإما إلى الشارع (أي يطلق سراحهم) وهناك، في زاوية، في البدء. في حوزته كانت تمتلئ بسرعة، ثم إلى جانبها أو فوقها. كانت توضع أشياء غير ذات قيمة، جرت مصادرتها أثناء مداهمات رجال الشرطة وكانت خطة بيدرو بالا تقوم في أن يقضي الليل، أو شطراً منه، في قاعة المعتقلين، والخروج (إذا استطاع الخروج) حاملاً مثل الأله أوعون وكانت لدى بيدرو بالا أفضلية كبيرة كان مجهولاً لدى الشرطة وبالإضافة إلى ذلك، كان عدد قليل جداً من الحراس يعرفونه كمشرد في الشارع رغم أن جميع الحراس، وحتى بعض المفتشين، يرغبون بشدة في القبض على زعيم «فرسان الرمال» وكانوا يعلمون عنه فقط أن في وجهه ندبة، وأمرّ بيدرو بالا يده على هذه الندبة لكنهم كانوا يظنونه أطول قامة، مما هو في الواقع، وكانوا يعتقدون أن بيدرو بالا هو خلاسي، وأكبر سناً وإذا ما توصلوا لمعرفة زعيم «فرسان الرمال»، فإنهم سيرسلونه إلى الاصلاحية، حيث يسهل الفرار، أو سيرسل إلى السجن، حيث لا يسهل الفرار على كل حال.

سار بيدرو بالا حتى كامبو غراندي لكنه لم يعد يسير بتلك الخطوة اللامبالية، خطوة لص شوارع المدينة من كان يمضي الآن وهو يترنح مثل ابن عار، وقد انسدل كمكه على عينيه بسبب المطر، والعاقة سترته السوداء (كان صاحبها في الماضي رجلاً طويل القامة)

كان الحارس يقف تحت شجرة بسبب المطر واقترب منه بيدرو بالا. كان يبدو خائفاً وحين خاطب الحارس، كان صوته صوت ولد خائف من ليل المدينة العاصف.

- سيدي الحارس

نظر إليه الحارس

- ماذا تريد، أيها الغلام

- أنا لست من هنا أنا من مارغراندي وقد جئت مع والدي اليوم

لم يدعه الحارس يكمل كلامه. بل قاطعه:

- وماذا تعمل هنا، يا صبي؟

- لست أدري أين أنام أود أن تسمح لي بالنوم عند الشرطة

- مقر الشرطة ليس فندقاً، أيها الأزعر هيا، اذهب من هنا، اذهب وأشار إلى بيدرو بالابتعاد

حينئذ حاول بيدرو اتمام المحادثة، لكن الحارس هدده بهراوته

- اذهب ونم في الحديقة، اذهب من هنا

ذهب بيدرو وعلى وجهه غم وألم. وسمر الحارس يرصد الغلام وتوقف بيدرو عند محطة الترام، وبقي ينتظر لم ينزل أحد من الحافلة الأولى، ولكن من الحافلة الثانية نزل زوجان انقض بيدرو بالا على المرأة ورأى الرجل أن الغلام يريد أن يخطف محفظتها. فأمسك به من ذراعه وكان الفتى يقوم بالعمل بصورة سيئة، بحيث لو رآه أحد من جماعة «فرسان الرمال» لما عرف أن هذا الغلام هو زعيمه وكان الحارس الذي تابع المسألة قد وصل إليهم.

- دلني على هذا الحوانيت لست من هنا. أيها اللص الصغير

واتعد. قبضاً على بيدرو بالا من ذراعه كان الغلام يسير ووجهه نصف خائف، ونصف صاحك

- لقد فعلت هذا لكي تقبض علي.

- ماذا؟

إن كل ما قلته، هو الحقيقة إن والدي بحار ولديه زورق في مارغراندي واليوم، تركني هنا، ولم يعد. بسبب العاصفة وأنا لا أدري أين أنام لقد طلبت النوم في المخفر وأنت لم ترد ذلك، وحينئذ تظاهرت بأنني سأسرق مرة وذلك فقط لكي تقبض علي والآن، لدي مكان أنام فيه

- وبرمش صويل

كان ذلك هو الجواب الوحيد للحارس ودخلا إلى مركز الشرطة واجتاز الحارس رواقاً، وترك بيدرو بالا في غرفة المفتشين. كان فيها خمسة أو ستة رجال وقال الحارس مزمجراً

- الآن تستطيع النوم. يا ابن هذه العاهرة. وبعد ذلك، حين سيأتي المفوض، سترى كم من الزمن ستنام هنا

لزم بيدرو الصمت ولم يعر المعتقلون الآخرون أي انتباه، وكانوا يهتمون أكثر بكثير بشخص لوطي قبض عليه، وهو يقول إنه يدعى «ماريبيت». وفي إحدى الزوايا، شاهد بيدرو الخزانة وكانت صورة «أوغون» على جانبها، قرب سلة الورق. وفي حين كان الآخرون يتحادثون، لف تمثال أوغون (لم يكن كبيراً، وكان هناك تماثيل أكبر منه بكثير) في سترته، وتمدد على الأرض ووضع يده على الزمة، وتظاهر بالرقاد.

استمر معتقلو تلك الليلة يسخرون من اللوطي، باستثناء رجل عجوز كان يرتعد في زاوية. كان بيدرو يجهل ما إذا كان بكاء الرجل من البرد أم من الخوف. لكنه سمع صوت زنجي شاب يقول لـ «ماريبيت»:

- من الذي فض بكارتك؟

- آه، دعني. هكذا أجاب اللوطي ضاحكاً

وقال الآخرون: لا تحتشم، لا تحتشم

- آه... إنه سوبولد... آه!

استمر العجوز يرتعد ولا حظه في الزاوية لص أحمر السن وجهه

لماذا لا تلتصق بهذا العجوز؟

هكذا سأل الزنجي الذي كان يعلك لساناً، الفتى المسمى «ماريبيت»

قال الفتى اللوطي: ألا ترى أنني لا أركض وراء العجائز؟ ثم، هذا سكين، ه جل عني ه

والآن، كان حارس يتحدث عند الباب، والتفت الرجل المحمور الوجه عن العجوز الذي انكمش على نفسه.

- أما أنت، فكنت تريد تمام لو أن هذا الفتى، «ماريبيت» قد درث... أليس كذلك يا عماه؟

- أنا رجل عجوز ولم أفعل أي شيء... هكذا همس العجوز، أكثر من كونه تكلم. أنا لم أفعل أي شيء، ولسنني ستطلقون

خمن بيدرو الذي كان مغمض العينين، أن الرجل كان سكيراً. لكن بيدرو استمر يتظاهر بالنوم. كان تمثال «أوغون» يؤلم رئتيه. وواصل المعتقلون يمزحون في صدد الفتى اللوطي والعجوز، إلى أن وصل حارس آخر، قال للعجوز:

- انت، أيها العجوز... هيا بنا

قال العجوز مجدداً: لم أفعل أي شيء... انني ستطلقون... كان غاضب

الجميع، الحراس والمعتقلين، وكان يرتجف بشدة بحيث أن الجميع أحسوا بالألم، وحتى اللص المحمور الوجه، قد خفض عينيه، كان الفتى اللوطي وحده يبتسم

ثم بعد العجوز، ثم جاء دور الفتى اللوطي وغاب فترة طويلة، وقد وضح الرجل المحمر الوجه أن «ماريبيت» هو من عائلة طيبة ومطيع. كان قائد الشرطة يجري اتصالاً هاتفياً بأهله، طالباً أن يحضروا لأخذه، لكي لا يضطر لاعتقاله هذه الليلة وبين حين وآخر، حين يتعاطى كمية كبيرة من الكوكايين، كان يحدث فضيحة في الشارع، ويعتقله أحد الحراس. وحين عاد «ماريبيت»، كان ذلك فقط لأخذ قبعته وحينئذ رأى بيدرو ملقى على الأرض فقال:

- إنه فتي جداً، هذا الغلام لكنه جميل جداً... حدق بيدرو، وعيناه مغمضتان، ثم قال

- اذهب يا لكع، قبل أن أسحق بورث...

ضحك الآخرون، وحينئذ فقط، خاطبوا بيدرو.

- ماذا تصنع هنا، يا جرذ الكنيسة؟

- هذا لا يعنيك، يا شجرة السعادين. هكذا أجاب بيدرو الرجل ذا الوجه المفرع

الحارس نفسه أخذ يضحك، وأوضح للآخرين قصة بيدرو. لكن الزنجي الشاب استدعي بدوره، وبقي الآخرون صامتين. كانوا يعلمون أن الزنجي قد سدد طعنة سكين إلى رجل في مقهى، وحين عاد، كانت يداه متورمتين من الضربات التي تلقاها وأوضح قائلاً:

- إنهم يقولون أنه سيجري محاكمتي بسبب جروح حقيقية... أما هم، فقد سددوا إلي درستين من الضربات

وصمت وبحث عن زاوية. وارتمى فيها وصمت الآخرون هم أيضاً. وتناوبوا واحداً بعد آخر حيث كان يستجوبهم المفوض. كان بطلق سراح البعض، والآخرون يرسلون إلى الحبس، وآخرون يعودون وقد أدمتهم الضربات. وكانت العاصفة قد هدأت وكان النهار يشرق. وكان بيدرو آخر من استدعي للاستجواب. وترك السترة التي لف بها صورة «أوغون».

كان المفوض نحيفاً شاباً يتلألأ في إصبعه خاتم مرصع بياقوتة حمراء، وكان يدخن السيجار. وحين دخل بيدرو مع الحارس، كان المفوض يطلب المقهى بصوت عال. ظل بيدرو واقفاً أمام المكتب، ساكناً بلا حراك. وقال الحارس

- هذا هو الغلام السارق في كامبو غراندي

أشار المفوض بيده

- نعرف إذا كانت هذه القهوة ستصل أو لا تصل

انسحب الحارس وقرأ المفوض تقرير الحارس الذي اعتقل بيدرو بالا، ثم نظر إلى الغلام

- ماذا لديك لتقول؟ ولن تكذب طبعاً.

روى بيدرو بصوت خائف قصة طويلة. قال إن والده صياد في مار غراندي، وإنه، في هذا اليوم بالذات، في الصباح، جاء مع الزورق، واصطحبه. ولكن إثر ذلك، عاد لكي يحضر حمولة ثانية وتركه في المدينة ينتظره لأن الصياد سيعود مرة ثانية إلى باهيا في فترة بعد الظهر، وحينئذ يستطيع الغلام العودة مع والده. لكن العاصفة هبت، فحالت دون عودة أبيه، وهو، أي الغلام، الذي لم يكن يعرف أحداً، بقي تحت المطر، دون أن يعرف أين سينام. وسأل رجلاً في الشارع أين يمكنه النوم، فقال: «في مخفر الشرطة». وحينئذ طلب من الحارس أن يصطحبه إلى المخفر، لكن الحارس رفض ذلك. وهو، أي الغلام، تظاهر حينئذ بأنه يريد سرقة امرأة، لكي يقوده الحارس إلى مركز الشرطة، فينام تحت سقفه.

- وهكذا فأنا لم أسرق، ولم أفعل... هذا ما قاله في ختام الحادثة.

قال المفوض، الذي كان يتذوق قهوة بجرعات صغيرة، في نفسه:

- مستحيل أن يختلق غلام في مثل سنه قصة كهذه... وأثر ذلك، ونظر لأنه كان لدى المفوض ـ محامي ـ ميول أدبية. فقد همس قائلاً: «هذه الحادثة ستكون قصة هائلة» وابتسم بشاشة، وسأل بيدرو:

- ما اسم والدك؟

- أوغستو سانتوس، وقد اختار اسم بحار معروف في مار غراندي

- إذا كان ما قلته لي صحيحاً، سأطلق سراحك. وإذا تبين أنك تريد خداعي بهذه القصة، سوف ترى.

ودق الجرس، مستدعياً الحارس. كانت أعصاب بيدرو متوترة جداً. ووصل الحارس، وسأله المفوض عما إذا كان لدى الشرطة سجل بأسماء صيادي مار غراندي، الذين يرسون على رصيف السوق.

- نعم يا سيدي، يوجد سجل.

ذهب ونظر إذا كان بين أسماء الصيادين صياد اسمه اوغستو سانتوس وعاد

وأبلغني الجواب. ولكن عجل، لأن ساعة خروجي قد اقتربت.

نظر بيدرو بالا إلى ساعة الجدار. كانت تشير إلى الساعة الخامسة والنصف صباحاً. وغاب الحارس بضع دقائق، ولم يعد المفوض يهتم ببيدرو، الذي كان واقفاً، أمام مكتبه. ثم عاد الحارس، وقال:

- نعم يا سيدي، هناك صياد يحمل هذا الاسم. واليوم بالذات، كان على أرصفة الساحة، ثم عاد بعد قليل.

أشار المفوض بيده وقال للحارس:

- أطلق سراح هذا الصغير

هب بيدرو الآن يأخذ سترته، ووضعها تحت ذراعه، وما كان يظن أحد أنه يحمل تحت طيتها صورة «أوغون». وتجاوز الغلام والحارس الرواق محدداً، وتركه الحارس على الباب. وعبر بيدرو ساحة «المحرومين» ودار حول الثكنة القديمة، ووصل إلى كامبو دي سيا، والآن ينطلق راكضاً لكنه سمع خطى خلفه. كان يبدو أن هناك من يتبعه. ونظر، فإذا بـ «الأستاذ»، وجواو غراندي، و«القط» يركضون نحوه، وانتظر إلى أن وصلوا إليه، وسألهم وقد أثار به الفضول:

- ماذا تصنعون في هذا المكان؟

حك «الأستاذ» رأسه

- ألا ترى أننا خرجنا، الآن، في ساعة مبكرة؟ كنا نروح ونجيء هنا. كنا نسير دون فعل أي شيء، حتى رأيناك وأنت منطلق ركضاً

وضع بيدرو سترته، وأظهر تمثال «أوغون». وأطلق جواو غراندي ضحكة سرور

- كيف فعلت لتتغلب عليهم؟

نزلوا على الساحل منزلقين، بسبب الأمطار التي هطلت في الليل. وسار بيدرو بالا مع صحبه، وهو يروي لهم مغامرات الليلة. وسأل «القط»:

- ألم تخف حتى قليلاً؟

أراد بيدرو في البدء أن يقول لا، لكنه اعترف قائلاً:

- لكي أقول الحقيقة، لقد استولى علي خوف من المصيبة. والمصيبة هي السجن لكي تخلصت منه. وضحك لملامح الوجه المرتعب، وجه جواو غراندي. كانت السماء الآن زرقاء، صافية، بلا سحب، والشمس تتلألأ، وهناك، من الطليعة، كانوا يرون القوارب التي تخرج من رصيف «السوق».

حيث يبتسم الله مثل زنجي صغير

كان فصل الربيع رائعاً، كبيراً جداً، ما كان يقال إن هذا ظهر لأحد أيام الشتاء، كانت الشمس تصب على الشوارع صفاءً لطيفاً، لم يكن يحرق، بل كان دفئه مدغدغاً مثل يد امرأة. وفي الحديقة الأمريكية، كانت الأزهار تتفتح في باقات من الألوان: أزهار الدونون والورود والقرنفل والذهبيات والسفح. وفي الشارع كان يبدو أن ثمة عطراً لذيذاً رقيقاً إلى أقصى حد، لكن «سكر الشعير» كان يحس أن هذا العطر ينفذ إلى خياشيمه، ويسكره ويعيد بث الرعشة في أعضائه. أكثر من هذا كانت ثمة مأدبة في حد ذاتها … الخادمة التي حضرت له الصحن … قد قالت وهي تنظر إلى الشارع، وإلى شمس الشتاء، والرجال الذين يمرون بدون معاطف:

— إنه نهار جميل.

هذه الكلمات رافقت «سكر الشعير» في الشارع. كان النهار جميلاً، وكان … يمضي عبر … صفواً يلحن … «حبيب الله الطيب»، مذكراً أن الأب خوريه بيدرو قد وعد أن يفعل كل ما يستطيعه لإدخاله إلى دير للدراسة والعبادة. فقد قال له الأب خوريه بيدرو أن كل هذا الجمال الطاغي، الشامل للأرض والناس، هو هبة من الله، وأنه يجب أن يحمد الله عليه. وراح «سكر الشعير» يتأمل السماء الزرقاء حيث لا بد أن يكون الله الطيب موجوداً ويشكره بابتسامة، كان يفكر في أن الله … ولدى تفكيره في الله الطيب فكر أيضاً في «فرسان الرمال»، كانوا يسرقون ويقاتلون في الطرقات، ويلعنون ويشتمون، ويمددون الزنجيات الصغيرات على الرمال، ويجرحون أحياناً بطعنات خنجر أو موسى رجالاً وشرطيين. ومع ذلك كانوا طيبين، وبعضهم أصدقاء بعض. وإذا كانوا يفعلون كل هذه الأشياء، فذلك لأنه ليس لهم أب ولا أم، ولأن حياتهم كانت حياة لا تضمن لهم الرغيف، وكانوا ينامون في مبنى لا سقف له تقريباً. ولو لم يكونوا يفعلون كل تلك الأشياء لماتوا جوعاً، لأنها كانت نادرة المنازل التي تعطي الطعام لواحد منهم، وللآخر تعطي الثياب، والمدينة بكاملها لن تكفي

لإعطائهم جميعاً. وفكر «سكر الشعير» بأنهم جميعاً محكوم عليهم بدخول الجحيم، والأب بيدرو بالذات لم يكن يؤمن بوجود الجحيم، وكذلك «الأستاذ» لم يكن يؤمن بذلك. كان … من «سكر الشعير»، أما جواو غراندي، من جهة، فقد كان يؤمن بـ «… أومولو»، وثمة الزنوج الذين جاؤوا من أفريقيا إلى … لدى كل صياد شجاع، وراقصاً مصارعاً لا مثيل له، كان يؤمن هو أيضاً بآلهة الزنوج، وكان يخلط بينهم وبين القديسين البيض، الذين جاؤوا من أوروبا. وكان الأب خوريه بيدرو يقول إن هذه المعتقدات هي كلها أوهام وترهات، وإن هذا خطأ، ولكن ليسوا هم «فرسان الرمال» مسؤولين عنه. وجرى «سكر الشعير» وسط جمال النهار: إذن، فكلهم محكوم عليهم بدخول الجحيم؟ كان الجحيم مكاناً مرعباً للأبدية، حيث يحترق المحكومون طوال حياتهم، وهذه الحياة لا تنتهي أبداً. وفي الجحيم، يوجد شهداء مجهولون حتى من الشرطة، وحتى من الإصلاحية. وقبل بضعة أيام، أثناء موعظة في كنيسة «لابيداد»، سمع «سكر الشعير» راهباً شاباً يصف الجحيم. وعلى المقاعد، كان الرجال والنساء يتلقفون كلمات الراهب الشاب الرهيبة وكأنها صرخات سخط. كان الراهب أحمر اللون، والعرق يسيل من وجهه، وكان كلامه مرتبكاً. وعبر هذا الكلام، كان الجحيم يبدو أكثر رهبة أيضاً. ورسمة … الأجساد التي كانت جاثية على الأرض، وقد انصرفت إلى الحب، والأيدي كانت رشيقة ماهرة، وقد قامت بالسرقة، واستعملت الخنجر والموسى. كان الله، عبر خطاب الراهب، هو الله المقاصي الذي يعاقب، وليس الله الطيب للمهرجانات الجميلة التي يصنعها الأب خوريه بيدرو. وإثر ذلك، أوضحوا لـ «سكر الشعير» أن الله هو … والعدالة … وعلق «سكر الشعير» حبه لله الطيب بعلاقة من الخوف إزاء الله. ومن الآن فصاعداً، سيعيش «سكر الشعير» مقسماً بين الشعورين. كانت حياته حياة شقية لولد متشرد، تخلى عنه الأهل والناس، وعلى هذا الأساس، كانت حياته تحكم عليه بحياة خطيئة، وسرقات شبه يومية، وأكاذيب على أبواب الناس الأغنياء. وهذا … في جمال هذا اليوم البديع، كان «سكر الشعير» يتأمل السماء الصافية التي وسعها الخوف، وصلى إلى الله الطيب جداً (لكنه عادل أيضاً) ليغفر له خطاياه، وخطايا «فرسان الرمال»، رفاقه في البؤس. لم تكن غلطة غلطتهم، وكانت خطأ خطأ الحياة.

كان الأب خوريه بيدرو يقول إن الغلطة هي غلطة الحياة، ذلك لأنه كان يعلم أن هذه هي الوسيلة الوحيدة ليضمن لهم حياة مبرأة من الآفات والذنوب. ولكن، بعد

ظهر أحد الأيام، حيث كان الأب جوزيه موجوداً هناك، وكذلك عامل الميناء، جان دادام، أعلن هذا أن الغلطة هي غلطة المجتمع السيء التنظيم، وغلطة الأغنياء. وأنه ما دام هذا لا يتغير، فإن الأولاد لن يتمكنوا من أن يصبحوا رجال خير. وأضاف أن الأب جوزيه بيدرو لن يتمكن أبداً من فعل أي شيء لأجل الأولاد، لأن الأغنياء سيمنعونه من ذلك. في ذلك اليوم، أحس الأب جوزيه بيدرو بيأس كبير، وحين حاول «سكر الشعير» تعزيته موضحاً له أنه لا ينبغي إعارة أي انتباه لآراء جان دادام، أجاب الأب وهو يهز رأسه الطويل:

- هناك أحيان أتوصل فيها للتفكير بأنه على حق، وأن كل شيء يجري بالمقلوب. لكن الله طيب، وهو سيتمكن من المداواة.

كان الأب جوزيه بيدرو يعتقد أن الله سيغفر. وكان الأب يريد مساعدة الأولاد ولما لم يكن يجد، إذ لم يكن لوسائل للتوصل إلى ذلك، فعلى الأقل، مع الأسف، جداراً أمامه (كان جميع الناس يريدون معاملة «فرسان الرمال» إما كمجرمين، وإما كأولاد يتيمون الأولاد الذين ربوا داخل بيت، وعائلة) كان الأب جوزيه بيدرو يحس بما يشبه المذنب، من وأحياناً يكون فاقداً الاتجاه، ضائعاً. لكنه كان يأمل في أن الله سيلهمه في يوم من الأيام، وبانتظار ذلك، لم يكن يغيب عن الأولاد، مع نصحه أحياناً في ابتعادهم عن أعمال شريرة. من كان أحد أولئك الذين أسهموا في قطع دابر اللواط في الجماعة. وقد شكل هذا إحدى التجارب الكبرى في كيفية معاملة «فرسان الرمال». وطوال ما كان الأب جوزيه بيدرو يردد أن من الضروري التخلص من اللواط، لأنه خطيئة، ولأنه شيء قذر وبشع، كان الأولاد يسخرون منه خفية، واستمروا في مضاجعة الأولاد الأفتى سناً والأجمل. ولكن، حين قال لهم الأب، يساعده هذه المرة «حبيب المعلم»، أن اللواط عمل غير جدير بالرجل، وأنه يجعل الرجل شبيهاً بالمرأة، بل وأسوأ من المرأة، اتخذ بيدرو بالا تدابير قاسية، وطرد مخنثي اللواط السلبيين من الجماعة. وبالرغم من جهود الأب جوزيه بيدرو، لم يقبل بيدرو بالا بعودتهم أبداً.

- لا يعودوا، فستتكرر القذارة، يا أبت.

وقد انتزع بيدرو بالا اللواط من بيئة «فرسان الرمال» كما ينتزع الجراح زائدة دودية ملتهبة من جسم رجل. وكان الأصعب، بالنسبة للأب جوزيه بيدرو، التوفيق بين الأشياء. لكنه كان يتحسس طريقه، ويبتسم أحياناً بارتياح للنتائج. وإن كان جان دادام، رغم كل شيء، يضحك منه، وينادي بأن الثورة وحدها هي التي ستسوي كل هذه الأمور كما ينبغي. وهناك في الأعلى، في المدينة العليا، كان الرجال الأغنياء

والنساء يطالبون بشدة بأن يسجن «فرسان الرمال»، أو أن يجري إدخالهم إلى الإصلاحية، التي هي أسوأ من السجن. وهناك، تحت، على أرصفة الميناء، كان جان دادام يريد التخلص من الأغنياء، وتحقيق المساواة في كل شيء، وإعطاء مدارس للأولاد الصغار. وكان الأب، من جهته، يريد إعطاءهم المنزل والمدرسة، والحنان، والرفاهية، بدون الثورة، وبدون التخلص من الأغنياء. ولكن في كل ناحية، كان يقوم حاجز. كان الأب يحس بأنه ضائع، وكان يطلب إلى الله أن يلهمه. وبشيء من الرعب، حين كان يفكر في هذه المسألة، كان يعطي الحق، حتى دون أن يدري، لعامل الميناء، جان دادام. وحينئذ كان يلوم نفسه، أي الخوري جوزيه بيدرو، الخوف، لأن ذلك لم يكن دروس أساتذته، وكان يصلي طوال ساعات لكي ينير الله طريقه.

بين «فرسان الرمال»، كان «سكر الشعير» المكسب الكبير للأب جوزيه بيدرو. وقد كانت له سمعة بصفته أكثر أعضاء الجماعة شراً، وكان يروى أنه في أحد الأيام غرس خنجره في عنق غلام لم يرد أن يقرضه نقوداً، وكان يريد غرس خنجره ثانية، دون أن يرتجف، حتى سال الدم، وأعطاه الولد حينئذ كل ما عنده. ولكن يروى أيضاً أنه غرس موسه أيضاً في جسم «شيكو - الشحم»، حين كان هذا الخلاسي يحاول الدخول إلى المستودع مطارداً الجرذان. ويوم راح الأب جوزيه بيدرو يتكلم عن الله، والسماء، والمسيح، وعن الطيبة والتقى، أخذ «سكر الشعير» يتغير. كان الله يناديه، وكان يسمع صوته القوي عبر المستودع، وكان يرى الله في أحلامه ويسمع نداءه. هذا الذي كان يتكلم عنه الأب جوزيه بيدرو، واتجه بكل كيانه نحو الله. وكان يصلي أمام الصور التي أعطاه إياها الخوري. وفي اليوم الأول، قوبل بصفير السخرية في المستودع. تضرب رداً من الأصغر سناً، وصمت الباقون. وفي اليوم التالي، قال له الأب إنه، أي «سكر الشعير»، قد أساء العمل، وأنه كان عليه أن يتألم من أجل الله. وحينئذ أعطى «سكر الشعير» موسه الحديدة تقريباً إلى الصبي الذي ضربه. وأبداً بعد ذلك لم يضرب أي غلام آخر. وكان يتجنب المجادلات والخلافات، وإذا كان لم يتجنب السرقات، فذلك لأنها كانت وسيلتهم للعيش، بل وسيلتهم الوحيدة. كان «سكر الشعير» يحس بشدة بدعوة الله، وكان يريد أن يتألم من أجل الله. وساعات وساعات، كان يركع في المستودع راقداً على الأرض، وكان يصلي حتى وهو متهالك نعاساً. وهرب من الزنجيات الصغيرات اللواتي كن يعرضن عليه مضاجعتهن على رمال الساحل الساحرة. لكنه، حينئذ كان يحل الله الطيبة النقية، ويقدم لله لقاء الآلام التي عاناها الله على الأرض إثر ذلك، جاء ذلك لكشف عن الله معاصي، تحقق العدالة،

(بالنسبة لـ «سكر الشعير»، أصبح هذا الإله المنتقم) واجتاح خوف الله قلبه، واختلط مع حب الله. وأصبحت صلواته أقل طولاً، لكن هول الجحيم يختلط بنعيم الله والنعم التي يعطيها. كان يصوم أياماً بكاملها، وأصبح وجهه نحيلاً مثل وجه زاهد متنسك كانت له عين صوفي، وكان يعتقد أنه يرى الله عبر ليالي الأرق. ولذلك كان يبعد نظراته عن أرداف ونهود المراهقات الصغيرات اللواتي كن يمررن كأنهن يرقصن، على أنظار الجميع، في أزقة المدينة الفقيرة. وكان يأمل في أن يصبح يوماً كاهناً لإلهه، وأن يعيش فقط ليتأمل فيه، وأن لا يعيش إلا من حبه. وكان حب الله يمنحه الأمل في النجاح، وأن الخوف من الله المنتقم من خطايا «سكر الشعير» كان يجعله يائساً من الخلاص.

وهذا الحب، وهذا الخوف، هما اللذان كانا يجعلان «سكر الشعير» يتردد أمام هذه الواجهة الزجاجية، في ساعة الظهر هذه، المليئة بأشعة الشمس اللطيفة والنيرة، والأزهار تتفتح في الحديقة، وفي كل مكان يسود الهدوء والسلام. ولكن كانت أجمل من جميع الأشياء هذه الصورة للحبل الإلهي، مع الطفل يسوع، التي كانت على رف هذا الحانوت، ذي الباب الواحد. وفي الواجهة الزجاجية، صور قديسين، وكتب صلاة ثمينة التجليد، ومسابح ذهبية، وذخيرات فضية. لكن في الداخل، في آخر الرف الذي يصل إلى الباب، كانت عذراء الحبل تمد الطفل يسوع نحو «سكر الشعير»، واعتقد «سكر الشعير» أن العذراء تريد أن تعهد إليه بالله الطيب، الله الطفل الصغير والعاري تماماً، الفقير مثل «سكر الشعير». لقد صنع النحات الولد نحيلاً، والعذراء حزينة جداً لهزال صغيرها، عارضة إياه أمام الأشخاص البدينين، والأغنياء. لذلك كان التمثال يبقى في الحانوت، ولا يباع. إن الطفل يسوع في الصور والتماثيل المعروفة هو دائماً طفل جميل سمين بهيئة ولد غني، لكنه هنا له فقير، ولد فقير، مشابه تماماً لـ «سكر الشعير»، ومشابه أكثر أيضاً للأولاد الأصغر في جماعته، ومماثل بالضبط للولد في المهد، البالغ بضعة أشهر فقط من العمر، الذي ترك يوماً في الشارع، حيث ماتت أمه من نوبة قلبية، وهي تحمله بين ذراعيها، والذي أحضره جواو غراندي إلى المستودع، حيث بقي حتى نهاية فترة بعد الظهر (وكان الأولاد يأتون وينظرون ويضحكون من «الأستاذ» ومن الزعيم، المنهمكين في تأمين الحليب والماء للطفل الرضيع). حتى جاءت الماي - دي - سانتو آنينها، وأخذته معها، مرقدة إياه على صدرها، مع فارق وحيد، هو أن هذا الطفل هو زنجي، في حين أن الطفل يسوع هو أبيض. وبالإجمال، فإن التشابه كامل. إن له وجهاً باكياً، هذا الطفل يسوع الهزيل والفقير، بين ذراعي العذراء. وهذه تهديه

إلى «سكر الشعير»، والداعيات «سكر الشعير»، والحب «سكر الشعير». وهناك في الخارج، النهار جميل، والشمس رحيمة، والأزهار متفتحة. ووحده، في هذا النهار، الطفل يسوع جائع وبردان. إن «سكر الشعير» سيأخذه إلى مستودع «فرسان الرمال» ويصلي لأجله، ويعتني به، ويغذيه. لكنه لا يظهر للنظر تماماً أنه يعكس جميع التماثيل والصور. ليس الطفل يسوع محبوساً بين ذراعي العذراء، وأنه حر بين يديها، وأنها تقدمه إلى «سكر الشعير». وخطا خطوة إلى الأمام. وفي داخل الحانوت، كانت بنت وحيدة تنتظر الزبائن، وهي تجرب على شفتيها ماركة جديدة من أحمر الشفاه. وليس هو أبسط من أخذ الطفل يسوع. ومد «سكر الشعير» قدمه ليخطو خطوة أخرى، لكن خوفاً شد جناحيه، وظل ساكناً بلا حراك. يفكر. وهو في خوفه، أقسم بأنه لن يسرق إلا لكي يأكل، أو حين تقتضي بذلك قوانين جماعة، أي القسام بعضه فقط يعنيه القيام بها بنذر، وبالا ذلك لأنه كان يقدر أن خيانة القوانين (إنها لم تكتب لكنها كانت محفورة في ضمير كل ولد من أعضاء الجماعة) أن خيانة قوانين «فرسان الرمال» كانت أيضاً خطيئة. وهو الآن سيسرق الطفل يسوع، لا لشيء إلا ليكون معه. ولتغذيته تماماً. كانت هذه خطيئته، لأنه لا يفعل ذلك لكي يأكل، أو لكي يطبع قوانين «فرسان الرمال». كانت هذه خطيئة، إنه يسرق ليس من أجل أن يأكل، ولا لكي ينفذ... إن الله عادل، وسيعاقبه، وسوف يسلمه لنار الجحيم تأججه. وسوف يحترق جسمه، وبدلاً من ذلك سيأخذ الطفل يسوع، ستحترق طوال حياة لن تنتهي أبداً. لقد كان الطفل يسوع ملكاً لصاحب الحانوت. لكن هذا لديه أطفال يسوع كثيرون، وجميعهم بدناء ومتوردون، كثيرون بحيث أنه لن يشعر بالنقص بفقدان واحد، نحيل وضعيف البنية جداً. والآخرون كانوا ملفوفين في أقمشة ثمينة، ذات أقمشة زرقاء سماوية لكن من النسيج الفاخر الثمين. أما هذا الطفل يسوع، فكان عارياً كلياً، وكان يحس بالبرد في بطنه، كان ناحلاً هزيلاً، وحتى من النحات لم يحصل على أي حنان. وكانت العذراء تقدمه لـ «سكر الشعير»، وكان الطفل حراً بين ذراعيها. إن لدى صاحب الحانوت كثيراً من الأطفال يسوع، كثيراً. فكيف سيشعر بالنقص إذا فقد هذا الطفل يسوع، الهزيل والعاري؟ ولعل صاحب الحانوت لن يعلق عليه أهمية. بل ربما سيصبح حتى سعيداً بسرقة هذا الطفل يسوع الذي لم يتوصل أبداً لبيعه، والذي كان حراً بين ذراعي العذراء، والذي بأمه كانت ليست التقيات اللواتي يأتين للشراء يصبحن مرتعبات

- كلا. ليس هذا، إلا أنه قبيح جداً فليعطه لي الله. وهو، فوق ذلك،

مفصول عن ذراعي سيدتنا العذراء ، انه سوف يسقط على الأرض ، وينتهي الامر
لا ، ليس هذا

وبقي الطفل يسوع هنا . كانت العذراء تقدمه لحنان بارة ، ولكن لم يكن احد يريده . لم يكن انساء القساء يردنه لأجل زاوية مصلاهن في منازلهن ، حيث يوجد أطفال ـ يسوع آخرون ، يحملون صنادل قصبية ، ومتوجون بتاج ذهبي . ورأى « سكر الشعير » فقط أن الصغير يسوع جائع وظمآن ، وبردان ايضاً ، وكان يريد أخذه لكن « سكر الشعير » لم يكن لديه نقود ، كما لم تكن لديه العادة لشراء الأشياء . كان يستطيع أخذه . كان يستطيع أن يعطي الطفل يسوع ما يأكله ، وما يشربه ، وما يرتديه ، كل هذا سيمده من حب الله . ولكن ان فعل ذلك ، أي ان سرق الطفل يسوع ، فسوف يعاقبه الله ، وسوف تلتهمه نار جهنم كل حياة « سكر الشعير » التي لا تنتهي ، ويديه اللتين ستأخذان الطفل يسوع ورأسه الذي يفكر في أخذه . وحينئذ تذكر « سكر الشعير » أن النية وحدها تشكل خطيئة ، وأن الشخص يخطيء فقط حين يفكر في فعل الخطيئة . لقد قال لاح الأعمى أن الشخص يكون في كثير من الأحيان أحداً بارتكاب الخطيئة ، وهو لا يعرف ذلك ، لأنه يخطيء بالفكر . فخاف « سكر الشعير » من الله ، وانطلق راكضاً بسرعة ، لكي لا يستمر في ارتكاب الخطيئة . لكنه لم يركض زمناً طويلاً ، بل وقف عند زاوية الطريق ، ولم يستطع أن يبتعد كثيراً عن التمثال . ونظر إلى الواجهات الزجاجية الأخرى ، وعلى هذا النحو لم يكن يرتكب الخطيئة . ودس يديه في جيبيه ، (كان يمسك بهما) وحول سير أفكاره . ولكن لأن كان يمر امامه الرجال العائدين إلى عملهم بعد الغداء ، وساورته فكرة . بعد لحظات ، سيعود مستخدمو الحانوت الاخرون ، وحينئذ سيكون من المستحيل اخذ الطفل يسوع . سيكون ذلك مستحيلاً . وعاد « سكر الشعير » إلى امام معرض الأشياء الدينية .

هنا كان الطفل يسوع ، والعذراء التي تقدمه إلى « سكر الشعير » . ودقت ساعة جدارية الساعة الواحدة بعد الظهر . ان يلبث ان يحضر المستخدمون الآخرون في الحانوت . وكم سيكونون ؟ حتى ولو لم يكن هناك سوى مستخدم واحد ، فان الحانوت صغير ، بحيث يصبح مستحيلاً أخذ الطفل يسوع . وبدا له أن العذراء هي التي تهمس له بهذا . والعذراء هي التي تقول له إنه إذا لم يأخذ الطفل ـ يسوع فوراً ، فهو لن يستطيع أخذه بعد ذلك . كأنها تماماً تقول هذا . وبالتأكيد أنها هي ، أجل ، هي التي جعلت الآنسة تختفي وراء الستار الموجود في عمق المخزن ، الذي تحتلت الآن عن حراسته . نعم ، إنها العذراء التي تعد الآن الطفل يسوع نحو « سكر الشعير » ، وبمقدار ما

يسمح لها ذراعاها ، تدعوه بصوتها اللطيف
ـ خذه واعتن به جيداً . اعتن به جيداً . .

تقدم « سكر الشعير » ورأى الجحيم وعقاب الله ، ويداه ورأسه التي تحترق طوال حياة لا تنتهي ، لكنه هز نفسه كأنه يبقي عنه بعيداً تلك الرؤيا ، وتلقى الطفل يسوع الذي كانت تقدمه له العذراء واسنده إلى صدره ، وحتى في الشارع لم يكن ينظر إلى الطفل يسوع لكنه حرور لأن الطفل يسوع ، المسنود إلى صدره ، يبتسم ، وهو لم يعد جائعاً ، ولا ظمآن ، ولا يحس بالبرد . إن الطفل يسوع يبتسم كما كان يبتسم الرعي الصغير حين صار في المستودع ، وكان يرى أن جبريل و عزرائيل كانا يعطيانه الحلب بالملعقة ، بيديه المائلتين الكبر ، في حين كان الاستاذ يشده على ذلك صدره

★ ★ ★

العائلة

وهكذا ابتسم الطفل يسوع

إن « الشارب اللطيف » هو الذي حكى لبيدرو بالا أن في ذلك المنزل يعيش « الأعرسا » ويوجد ذهب بمقدار يفقدك العقل . إن صاحب المنزل ، كما يبدو ، هو جامع تحف ، وقد علم « الشارب اللطيف » من أحد اللصوص أنه يوجد في ذلك المنزل غرفة محشوة بالتحف الذهبية والفضية ، التي يمكن أن يعود بيعها بثروة كبيرة . وفي فترة قبل الظهر ، ذهب بيدرو بالا لمشاهدة المنزل ، مع « الشارب اللطيف » وكان عبارة عن عمارة عصرية واسعة ، توجد أمامها حديقة ، ومرآب في العمق . وهي مسكن فسيح لأشخاص أغنياء . وبصق « الشارب اللطيف » من بين أسنانه ، ورسم ببصقه زهرة على الرصيف ، ثم قال

والقول إنه في هذا القصر يسكن عجوزان فقط !

وعلق بيدرو بالا قائلاً

- كوخ جميل جداً

وفتحت الخادمة الباب الأمامي ، وخرجت إلى الحديقة . وفي البهو الذي ظهر للأنظار ، شاهدوا لوحات معلقة على الجدران ، وعلى الطاولات كانت تماثيل صغيرة ، واستغرق بيدرو بالا بالضحك

- لو أن « الأستاذ » رأى هذا ، لأصيب بالجنون . إذ لم يسبق لي أبداً أن رأيت مثل هذا القدر من الكتب واللوحات

- سوف يرسم لوحة وجهية لي ، بهذا الكبر . وأشار « الشارب اللطيف » إلى « هذا الكبر » بابعاده يديه احداهما عن الأخرى

ونظر بيدرو بالا مرة أخرى إلى المنزل ، واقترب قليلاً من الحديقة وهو يصفر . كانت الخادمة تقطف الأزهار ، وكان نهداها الفتيان يظهران تحت الثوب المكشوف الرقبة والكتفين (الدكولتيه) لأنها كانت منحنية . كان نهدان أبيضين ، ينتهيان بحلمتين قرمزيتين . نهد « الشارب اللطيف » إلى جانبه

- يا له من حسن يا بالا

- سيد تبارك

لكن الخادمة كانت قد رأتهما ، وأخذت تنظر إليهما وكأنها تسألهما ماذا تريدان

جمع بيدرو بالا كاسكيته وسأل

- هل يمكنك أن تعطينا قدح ماء إن سمحت . إن الشمس قوية الحرارة

وابتسم ، ماسحاً بكاسكيته جبهته التي كان يسيل عليها العرق . كان شديد الاحمرار تحت الشمس ، وشعره الأشقر الطويل يسترسل على أذنيه بتموجات غير منسقة ، وقد نظرت إليه الخادمة بعطف . وإلى جانبه ، كان « الشارب اللطيف » يدخن عقب سيجارة ، ورجله على حجر الحديقة الصغير . وخاطبت الخادمة أولاً « الشارب اللطيف » مزدرية

- أبعد قدمك عن الحاجر يا هذا !

ثم ابتسمت لبيدرو بالا

- سأحضر الماء فوراً

وعادت مع كوبي ماء ، وكانا كوبين لم يسبق أن رأى مثلهما ، لشدة جمالها . وشربا الماء ، وشكرها بيدرو بالا

- شكراً جزيلاً

ثم قال بصوت منخفض جداً تقريباً

حسب الخادمة ، هي أيضاً ، بصوت منخفض . ذلك صغير جسور

- في أية ساعة تخرجين من هنا ؟

- يا لك من شخص ! إن عندي رجلي . وهو سينتظرني في الساعة السابعة مساءً ، عند هذه الزاوية من الشارع

- حسناً هذا المساء ، سأكون عند الزاوية الأخرى .

وذهبا عبر الشارع ، و « الشارب اللطيف » يدخن عقب سيجارته وهو يهوي وجهه بقبعة مستديرة ، التي كان يحملها ، وعلق بيدرو بالا

- إنني جد حسن ، وهذه مرأة ناضجة تماماً

بصق « الشارب اللطيف » بعيداً من بين أسنانه

- أيضاً مع هذا الشعر السوي المستعار المليء بالخصلات المجعدة ..

رفع بيدرو بالا قبضته في وجه « الشارب اللطيف »

- دعني من حسدك ، يا خلامي المرعج

وعبر «الشارب اللطيف» الحديث

ـ ماذا عن قطع الفضة؟

ـ هذا أولاً عمل لأجل «ذي الرجل الرخوة». غداً سيجد وسيلة للدخول إلى هذا المنزل، لقضاء بضعة أيام فيه. وبعدئذ، سوف يعرف أين توجد أفضل القطع، ويأتي خمسة أو ستة، ويأخذ البضاعة

ـ وستفقد خادمتك؟

ـ الخادمة الصغيرة؟ سوف أنالها هذه الليلة بالذات، وحين تدق الساعة التاسعة، سأكون هناك

والتفت ونظر إلى المنزل. كانت الخادمة متكئة على الحاجز الحديدي وحياها بدرو بالا مودعاً، وردت التحية. وبصق «الشارب اللطيف»

ـ للشيطان أي حظ بك! لم أر في حياتي مثل هذا الحظ

في اليوم التالي، حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر، ظهر «ذو الرجل الرخوة» أمام المنزل. وحين دق الجرس، كانت الخادمة ما تزال تفكر في الليلة التي قضتها مع بدرو بالا، في غرفتها على «غارسيا»، ذلك أنها لم تسمع رنين الجرس. ودق العلام الجرس ثانية. فظهر من نافذة غرفة في الطبقة الأولى من المنزل، رأس وخطه الشيب لسيدة راحت تنظر إلى «ذي الرجل الرخوة»، وعيناها تطرفان

ـ ماذا تريد، يا بني؟

ـ يا سيدتي، إني ولد يتيم

أشارت له المرأة بأن ينتظر. وبعد بضع دقائق، كانت عند الباب دون أن تسمع كلام الخادمة التي كانت تعتذر لأنها لم تسمع رنين الجرس

وقالت السيدة

ـ تستطيع أن تتكلم، يا ولدي

كانت تتأمل أسمال «ذي الرجل الرخوة»

ـ يا سيدتي لم تعد لي أم، ومنذ أيام توفيت أمي، أي رحمة الله

وبدت شريطة سوداء على ساعده. وهي ساعده صنعت من شريطة قبعة «القط» الحديدة ـ لدى إصابته بحسد عصب شديد

وعاد «ذو الرجل الرخوة» يقول للسيدة

ـ ليس لي أحد في العالم، أنا معاق، ولا أستطيع العمل كثيراً. ومنذ يومين لم أذق

الطعام، وليس لدي مكان أنام فيه

كان يبدو وكأنه على وشك البكاء. وكانت السيدة تنظر إليه، متأثرة جداً

ـ هل أنت معاق، يا بني؟

أظهر «ذو الرجل الرخوة» ساقه العرجاء، وسار أمام السيدة مبالغاً في عرجه وحدقت فيه بعطف

ـ بأي شيء ماتت أمك؟

ـ الحقيقة لست أدري. لقد أصيبت المسكينة بمرض لا أعرف اسمه، حتى سيئة ملاقت وجه ربها بعد خمسة أيام. وخلفتني وحيداً في العالم. لو على الأقل كنت أستطيع العمل. كما ستدرين، كنت أستطيع أن أدبر أمري. ولكن مع هذا العرج، لا حيلة لي إلا في منزل عائلة. ألا تحتاجون إلى ولد صغير ليقوم بالمشتريات، ويساعد في العمل في المنزل؟ إذا كنتم بحاجة إلي يا سيدتي

وإذ أن «ذا الرجل الرخوة» اعتبر أنها ما زالت مترددة، أكمل كلامه بوقاحة، وبصوت باك

ـ لو شئت لانضممت إلى هؤلاء الغلمان اللصوص، إلى «فرسان الرمال» لكنني أنا، لا أكل من هذا الخبز، إنني أريد أن أعمل. ولكن هناك أني لا أستطيع أن أتحمل عملاً كبيراً. أنا يتيم مسكين، أنا جائع

لكن المرأة لم تكن أبداً مترددة. وكانت تتذكر ولدها الذي مات وهو في سن هذا الغلام. والذي قبل موته كل بهجة عيش مع زوجها، وهذا، على الأقل، كانت لديه مجموعاته من الأعمال الفنية. لكنها، من جهتها لم تكن تملك سوى ذكرى هذا الابن الذي غادرها في وقت مبكر جداً. لذلك كانت تنظر بحنان كبير إلى «ذي الرجل الرخوة» المرتدي الأسمال البالية. وتكلمه بصوت ليس لنغمه هو لطف الأيام العادية كان هناك بعض البهجة في نصف صوتها، وقد أذهل ذلك الخادمة

ـ ادخل يا ولدي. لا تقلق. سوف أجد لك عملاً

ووضعت يدها الدقيقة والأرستقراطية، يتلألأ فيها خاتم ذو ماسة على رأس «ذي الرجل الرخوة» القذر، وقالت للخادمة

ـ ماري ـ جوزيه، أعدي الغرفة القائمة فوق مرآب هذا الرجل، وديه على قاعة الحمام وأعطيه منشفة، وأثواب وأثر ذلك، أعدي له الطعام

ـ هل قبل أن أعد الغداء، يا دونا إستر؟

ـ نعم، فمنذ يومين لم يأكل، هذا المسكين الصغير

لم ينبس «ذو الرجل الرخوة» بكلمة. وكان يقوم فقط بمسح دموعه المتعثرة بظاهر يده.

قالت السيدة: لا تبك. وأخذت تمسح على وجه الولد.

- إنك صبية جداً. سيكافئك الله على هذا!

ثم دنت، سألته عن اسمه، فأعطى أول اسم خطر بباله:

- أوغست.

ونظراً لأنه راح يردد الاسم، لذاته لكي لا ينسى أنه يدعى «أوغست» ولم ير بادىء بدء انفعال السيدة التي همست قائلة:

- أوغست، إنه نفس الاسم.

وأضافت بصوت عال، لأن «ذا الرجل الرخوة» كان الآن ينظر إلى وجهها بتمعن:

- ابني كان أيضاً يدعى أوغست. لقد مات وهو في نفس سنك. والآن يا ولدي اذهب واغتسل، لكي تأكل.

سمعته الدونا استير، مستثيرة. ورأت أن الخادمة كانت تشير لـ «ذي الرجل الرخوة» إلى مكان الحمام، وتعطيه مئزر حمام، وتتجه نحو الغرفة القائمة فوق المرآب، لكي ترتبها (كان السائق قد أخذ عطلته، وكانت الغرفة خالية). اقتربت الدونا استير وقالت لـ «ذي الرجل الرخوة»، الذي كان قد توقف عند باب الحمام:

- ستستطيع أن تلقي عنك هذه الملابس، وستعطيك ماريا ـ جوزيه ملابس أخرى.

راح «ذو الرجل الرخوة» ينظر، الآن، إلى السيدة التي كانت تبتعد. وكان غاضباً، لكنه لم يكن يعرف إذا كان غاضباً ضدها أو ضد نفسه.

جلست الدونا استير أمام منضدة زينتها، ولبثت رهينة العينين، والذي يراها يعتقد أنها تنظر إلى الناس عبر النافذة. لكنها في الحقيقة، لم تكن تنظر إلى شيء، ولم تكن ترى شيئاً. كانت تنظر، نعم، ولكن إلى داخل ذاتها، نحو ذكرى سنوات بعيدة، وكانت ترى غلاماً صغيراً في مثل سن «ذي الرجل الرخوة»، وهو، أي ولدها، كان لابساً ثياب بحار، ويركض عبر حديقة المنزل، الذي تركوه بعد موته. كان ولداً ملؤه الحياة والبهجة، وكان يحب أن يضحك ويقفز. وحين كان يتعب من الركض مع الهر، ومن الصعود إلى أرجوحة الحديقة، ومن بقاء الكرة المطاطية في الساحة، حيث يكون على كتف الدلب (شبين ـ لو) أن يسقطها، كان يأتي ويحيط بساعده عنق الدونا استير،

ويقبلها على وجهها، ويبقى معها ناظراً إلى الكتب المصورة، متعلماً قراءة الحروف ورسمها. ولكي يقضي معها أطول فترة ممكنة، قررت دونا استير وزوجها أن يعلمه مدرس في غرفته في المنزل بالذات. وفي أحد الأيام (هنا اغرورقت عينا الدونا استير بالدموع) أصابت الولد الحمى، وإثر ذلك، اختار الموت صغير البيت.

وكانت الأم تنظر إليه مذهولة العينين، ولم تكن تستطيع أن تفهم أن ولدها قد مات. كانت صورته ـ في إطار كبير ـ في غرفتها، ولكن كان يحجبها ستار داكن، لأنها لم ترد رؤية صورة ولدها مجدداً، لكي لا تجدد غصتها. وحتى الملابس التي كان يرتديها قد جمعت في حقيبة صغيرة، ولم يمسها أحد أبداً بعد ذلك. لكن الآن كانت دونا استير تسحب مفاتيح علبة حلاها.

وببطء، ببطء شديد، اتجهت نحو المكان الذي توجد فيه الحقيبة. وقربت كرسياً جلست عليه. وفتحت الحقيبة بيدين مرتجفتين، وأخذت تتأمل السراويل والكنزات، والبزة البحرية، والبيجامات، والقمصان الصغيرة التي كان ينام بها. وشدت البزة البحرية على صدرها كما لو كانت تعانق ولدها. وانحدرت دموعها.

والآن، جاء غلام صغير فقير ويتيم، يدق بابها. وبعد موت ولدها، لم ترد أولاداً حولها، بل لم تكن تحب رؤية أولاد الآخرين، ولا أن تلاعبهم لكي لا تزعج الألم الذي يراود ذكراها. ولكن ها هو أحد هؤلاء الأولاد، فقير ويتيم، معاق وحزين. ويقول أنه يسمى «أوغست» مثل ولدها. قد جاء يدق بابها، طالباً الخبز والمأوى وقليلاً من الحنان. لهذا أصبحت لديها الشجاعة لفتح هذه الحقيبة ولأن تخرج منها زي البحار هذا الأزرق، هذه البدلة التي كان يحبها من بين جميع الملابس الأخرى. ذلك لأنه، بالنسبة للدونا استير، قد عاد ابنها اليوم في صورة هذا الولد المعاق واللابس الأسمال، وهو بدون أم ولا أب. لقد عاد ولدها، ودموعها ليست دموع ألم فقط. لقد عاد إليها، شاحباً هزيلاً، وحزيناً مع ساق معطوبة، ومرتدياً الأسمال البالية. ولكن عن قريب سيصبح من جديد أوغست السعيد والمرح، أوغست الأعوام المنصرمة، ومن جديد سيأتي ليحيط بساعده عنقها، وليقرأ حروف الأبجدية الكبيرة.

نهضت الدونا استير وحملت البزة البحرية الزرقاء. وتحول «ذو الرجل الرخوة» لأول مرة في حياته، مرتدياً هذه البزة.

فلو أن بذلة البحار قد صنعت لأجله، لما كانت أنسب كما هي عليه الآن. فقد لبست بدن «ذي الرجل الرخوة»، وحين نظر إلى نفسه في المرآة، تعرف إلى ذاته بصعوبة. لقد استحم. وقد وضعت الخادمة البريانتين على شعره، وعطراً على وجهه

وهذه البدلة السحرية كانت رائعة. وراح «ذو الرجل الرخوة» يتأمل نفسه في المرآة وأمر يده على رأسه، ثم على صدره، متلمساً ثيابه. وابتسم وهو يفكر في «القط». وكان يمكن أن يدفع غالياً لكي يراه «القط» في مثل هذه الأناقة. وكان لديه أيضاً حذاء جديد. ولكن الحقيقة هي أن الحذاء كان يثير قرفه بعض الشيء، لأن له عقدة شريط، ويشبه قليلاً حذاء امرأة. وكان «ذو الرجل الرخوة» يجد أن من الغريب أن يلبس ثياب بحار، مع حذاء نسائي. واتجه نحو الحديقة وذلك لأنه كان يريد التدخين، فهو لم يمتنع أبداً عن التدخين بعد الغداء. وأحياناً لم يكن هناك غداء، ولكن دائماً كان هناك عقب سيجارة ما. وهنا، كان يحب الانتباه، إنه لا يستطيع أن يدخن على المكشوف. ولو أنهم تركوه في المطبخ، مختلطاً بالخدم، كما كانت الحال في المنازل الأخرى، أو حيث تم دعوته لكي يسرق إثر ذلك، لكان في استطاعته التدخين، وأن يعبر عن نفسه بمعيّة «فرسان الرمال» المختصرة. لكن هذه المرة، جرى تحميمه، وألبس ثياباً جديدة، ووضع بريانتين على شعره وعطر على وجهه. وإثر ذلك، جرى طعامه في غرفة الطعام. وأثناء تناول الوجبة، كانت السيدة تحادثه كما لو كان غلاماً صغيراً حسن التربية. ولأن أرسلته ليلعب في الحديقة، حيث كان الهر الأصفر المسمى «بيرلوك»[22] يستدفئ في الشمس. واقترب «ذو الرجل الرخوة» من أحد المقاعد، وأخرج من جيبه علبة سجائر رخيصة الثمن. فهو، لدى تغييره ملابسه، لم ينس علبة الدخان. وأشعل سيجارة وبدأ يتذوق دفقات الدخان في الوقت نفسه مع تفكيره في حياته الجديدة. لقد سبق أن قام بهذا مراراً عديدة أن يدخل إلى منزل عائلة جيدة كولد فقير، يتيم، ومعوق. وعلى هذا الأساس، كان يبقى في ذلك المنزل الوقت الضروري لكي يستكشف المنزل بصورة كاملة، والمواضع التي حفظت فيها الأشياء الثمينة، والمخارج الملائمة للهرب. وإثر ذلك، كان «فرسان الرمال» يهاجمون المنزل، خلال إحدى الليالي، ويحملون الأشياء القيمة. وفي المستودع كان «ذو الرجل الرخوة» ينتظر. وقد استولى عليه فرح هائل، فرح بأنه قد انتقم. لأنهم في هذه المنازل، لم يكونوا يستقبلونه، وإذا كان يمضي حزناً ومأوى، فذلك كما لو أنهم يقومون بواجب مفروض. كان أصحاب المنزل يتلافون الاقتراب منه، ويتركونه في الغرفة، وهم لم يصدر منهم أبداً أي كلام طيب. وكانوا ينظرون إليه كأنما يسألونه

(٢٢) «بيرلوك» أي الخاطف

ـ ملاحظة من المترجم ـ

متى سيرحل. وإذا لم يكن تأخر على الرحيل. وفي كثير من الأحيان كانت السيدة التي تأثرت لدى رؤيته قصته، التي كان يرويها بصوت تنتابه بصوت يرق للأحشاء، وسمعته، تظهر علائم واضحة على الندم. وبالنسبة لـ «ذي الرجل الرخوة»، كانت السيدات تستحقه في الندم، لأن «ذا الرجل الرخوة» كان يعتبرهن جميعاً مسؤولات عن وضع جميع الأولاد الفقراء. وكان يبغضهن جميعاً، ويبغض أزواجهن وأولادهن، ببغضاء عميقة. وكان ابتهاجه الكبير والوحيد تقريباً، هو أثارته لبؤس العائلات بعد سرقته، لدى تفكيرها بأن هذا الغلام الجائع الذي أطعمته كان هو الذي استطاع المنزل ودعي لأولاد جائعين آخرين أماكن وجود الأشياء الثمينة.

ولكن هذه المرة، كان الأمر مختلفاً. هذه المرة، لم يترك في المطبخ مع أسماله البالية، وهو لم يترك للنوم في الباحة. لقد أعطي ملابس، وغرفة، ووجبة في غرفة الطعام. وقد استقبل كضيف، كضيف محبوب. وهو، أثناء ما حيث سيحجزونه سراً، كان يتساءل في نفسه لماذا يجيء، مدخناً، إنه لا يفهم شيئاً مما يحدث. كان وجهه مهموماً. إنه يتذكر يوم السجن، والضربات التي وجهت إليه، والأحلام التي لم تكف عن مراودته، والحاجة حس بالخوف. كان يخاف من أنه في هذا المنزل، سيعامل بطيبة. من أن أصحاب المنزل سيعاملونه بطيبة، أخرى. وهو لا يعرف لماذا هو خائف. ونهض، وخرج من مخبئه، وذهب للتدخين تحت مظلة سيدة ناصطو. وهكذا سيرون أنه ولد ضال، وأنه لا يستحق الغرفة والملابس الجديدة، والوجبات في غرفة الطعام. وهكذا سوف يرسلونه إلى المطبخ، وسوف يستطيع أن يقوم بنجاح بعمله الانتقامي، وأن يغذي البغضاء في قلبه. ذلك لأنه إذا انتهت هذه البغضاء، فسوف يموت، ولن يبقى لديه أي سبب للحياة. ومرت أمام عينيه رؤية الرجل الذي يرى الجنود يتهاوون بالضرب عليه (أي على «ذي الرجل الرخوة»)، فيتفجر (أي الرجل) بضحكة فظة. وهذا ما يجب أن يمنع «ذا الرجل الرخوة» من أن يرى وجهه بدون أسير المفعم بالطيبة. وبادرة الأب جونه بدرو خاصة له، وتضامن العصابات الإضرابية لعمال المرفأ. حين «ذا الزمان» سوف يبقى وحيداً وبغضاؤه سوف تشملهم جميعاً، بيضاً وزنوجاً، رجالاً ونساءً، أغنياء وفقراء. هذا يخشى أن يكون سامحاً طيبين نحوه.

وفي فترة بعد الظهر، وصل صاحب المنزل راؤول من مكتبه. كان محامياً شهيراً حقق ثروة من مهنته، وهو يقوم بالتدريس في كلية الحقوق، ولكنه فوق كل شيء، كان هاوي مجموعات. كان لديه رواق ممتاز من اللوحات، والعملات القديمة، والأعمال الفنية الثمينة. وفي هذه اللحظة، كان «ذو الرجل الرخوة» يتفرج على الصور

في هذه كتب الأعمال، انصحت في نفسه على مثل الآلة الذي يخدعه بمفرده ولم يره
أحد قبل صعدة الدرج، ولكن بعد ذلك فوراً، جاءت الخادمة تدعو «ذا الرجل
الرخوة» وقادته إلى غرفة الدونا استير، وكان راؤول في القميص، بدون سترة، يدخن
سيجارة، وينظر إليه بريبة بابتسامة مرحة. بدت له أن ملامح «ذي الرجل الرخوة»
كانت تعبر عن ارتباك لدى دخوله الغرفة

- ادخل

كان «ذو الرجل الرخوة» يترنح، ولا يعرف أين يضع يديه، وقابلته الدونا
استير بطيبة

- اجلس، يا بني. ولا تخف

جلس «ذو الرجل الرخوة» على حافة كرسي، وانتظر. وراح المحامي يتفحصه،
درس وجهه، ولكن كان ذلك بعطف. وكان «ذو الرجل الرخوة» يعد أحزانه على
أصابعه التي لا عد لها. وحكى مرة ثانية القصة التي اختلقها في الصباح، ولكن حين
بدأ يبكي بدموع غزيرة، دعاه المحامي للتوقف، ونهض متجهاً نحو النافذة. وفهم «ذو
الرجل الرخوة» أن الرجل قد تأثر، ونتيجة لذلك (أي «ذو الرجل الرخوة») هدأ حملته
بعض الشيء في دخيلته. ولكن الآن اقترب المحامي من الدونا استير، وقبلها على
الجبين ثم على شفتيها. وغض «ذو الرجل الرخوة» بصره. وسار راؤول إليه، ووضع
يده على كتفه وقال

- لا تبتئس بعد الآن. الآن لن تعرف الجوع بعد أبداً. اذهب... اذهب والعب،
اذهب وتفرج على الكتب. هذا المساء سنذهب إلى السينما. هل تحب السينما؟

- نعم، يا سيدي

وصرفه المحامي مشيراً بيده. وخرج «ذو الرجل الرخوة». لكنه رأى قبل خروجه
راؤول يقترب من الدونا استير ويقول لها

- يا قديسة سوف نجعل منه رجلاً. كانت ساعة المغيب، وأضاءت الأنوار.
وفكر «ذو الرجل الرخوة» أن «فرسان الرمال» في هذه الساعة يرتادون المدينة بحثاً
عن طعام

وبعد ذلك... في السينما، حين كان الشاب سهلاً صريعاً على الرجل العظيم لم يستطع
«ذو الرجل الرخوة» أن يصرخ كما كان يفعل في المرات التي يتمكن فيها من الدخول إلى
... الأعلى للسينما «ريس» أو الى سينما «إيسا» جيب» أو هنا، في سينما «غوراني»
الفخمة والمريحة. فكان عليه أن يتابع الفيلم في صمت، وفي لحظة معينة لم يتمكن فيها

من ... فأطلق صفيراً. نظر اليه راؤول. صحيح أن المحامي كان يبتسم، لكن
المؤكد أنه استنكر الحركة لكي لا يعود «ذو الرجل الرخوة» إلى الصفير

وبعد ذلك صحبوه لاحتساء شراب في بار قائم تجاه دار السينما. وفي حين كان
يحتسي شراب الشوكولا المثلج، فكر «ذو الرجل الرخوة» في أنه كاد يرتكب حماقة لا علاج لها
حين سأله المحامي عما يريد أن يشرب وكاد يطلب مرة منعشة جداً. لكنه تمالك
نفسه في الوقت المناسب، وطلب شراب الشعير.

وفي السيارة صعد المحامي إلى المقعد الأمامي لقيادة السيارة، وصعد «ذو الرجل
الرخوة» إلى المقعد الخلفي، مع الدونا استير التي كانت تدردش معه وكانت محادثة
تعسر على «ذي الرجل الرخوة» الذي كان عليه أن يضبط كلماته وتعابيره التي كانت
بذيئة جداً، ومليئة بكلمات فظة. وكانت الدونا استير تسأله عن أمه، وكان «ذو
الرجل الرخوة» يجيب كما يستطيع ويبذل جهداً كبيراً ... كان يختلقها
لكي لا يفتضح مرة في سؤال وفي النهاية ... وقادت
الدونا استير «ذا الرجل الرخوة» إلى غرفة ملائمة فوق الدرج.

- لا تخاف النوم هنا بمفردك؟

- كلا، يا سيدتي

- ربما تنقصه أيام فقط وأنا ... سأسكنك فوق في الغرفة التي كانت
لولدي أوغست

- لا داعي هنا. أيتها الدونا استير فهذه الغرفة هنا جيدة جداً

وانحنت عليه وقبلته

- ليلة سعيدة، يا صغيري

خرجت، وأقفلت الباب. وظل «ذو الرجل الرخوة» ساكناً بلا حراك، دون أية
حركة، حتى دون أن يجلس على التخت مستلقياً واضعاً يده على وجهه حيث قبلته
الدونا استير. لم يكن يفكر في شيء، ولا يرى شيئاً. لا شيء. لا في القبلة الحلوة، هذه
القبلة التي لم يسبق له مثلها من قبل. إنها قبلة أم. لا شيء. لا بسمة حتى على وجهه
... حتى كأن الأرض توقفت عن الدوران في لحظة القبلة هذه، وأن كل شيء قد تغير
ولم يعد هناك ما يكون بأسره سوى الإحساس اللطيف بهذه القبلة الأمومية على وجه
ذي الرجل الرخوة.

وإثر ذلك، كانت رغبة أحلام ... وإن الرجل ذو الصدرة الذي كان انصحت
مصفقاً، وحيداً ... على «ذي الرجل الرخوة» الذي كان يركض

برجله الملاصقة حول الغرفة، ولكن فجأة برزت الدونا اسبير، والرجل ذو الصدرة، وجنود الدين يجولون وسط غيمات بعذيب ليس لها مثيل، ذلك لأن «ذا الرجل الرخوة» كان يرتدي الآن بزة بحار، ولكن يمسك بيده سوطاً مثل الشاب في السينما

ومرت ثمانية أيام. وقد جاء بيدرو بالا مراراً عديدة إلى أمام المنزل ليسقط أنباء «ذي الرجل الرخوة» الذي تأخر في العودة إلى المستودع، لقد مر أكثر من الوقت اللازم حتى عرف «ذو الرجل الرخوة» أماكن الأشياء الثمينة الممكن نقلها، والمخارج التي من شأنها تسهيل الفرار. ولكن بدلاً من أن يرى «ذا الرجل الرخوة» كان بيدرو بالا يرى الخادمة التي كانت تظن أنه جاء من أجلها. وفي أحد الأيام، وكان يحدث هذه الخادمة، أدار بيدرو بالا الحديث بكثير من البراعة، نحو «ذي الرجل الرخوة»

- السيدة التي هنا لها غلام. أليس كذلك؟

- هذا ولد صغير سنه، وهو لطيف جداً

ابتسم بيدرو بالا، لأنه كان يعرف أن «ذا الرجل الرخوة» حين يريد، كان يظهر كأفضل غلام صغير في العالم. وتابعت الخادمة تقول

- إنه أصغر منك قليلاً، لكنه غلام صغير إنه ليس داعراً ولا فاسقاً مثلك، أنت الذي بدأت بمجامعة النساء... وكانت تضحك من بيدرو بالا قائلة

- أنت الذي فضضت بكارتي

- لا تقولي أشياء حسنة ثم أن هذه أكذوبة

- أنا نادمة على ذلك

كانت تحب أن يكون هذا صحيحاً، وهي، وإن لم تصدق ذلك، ولكن كان يروق لها أن تقوله له. ولم يكن يحس فقط أنها عشيقة للغلام، بل إنها أيضاً بعض الشيء

- لعل سيدة لا أعطت طريقة ممتعة

- هذه حيلة، عند رؤية الشارع ولكن قولي لي قليلاً لا تدرين أمرك مع الغلام الذي هنا؟

- لا تعرف حتى ما هو هذا الشيء. إنه سنه صغير، وولد مدلل الست مجانين أنت يرى حيث أنه ليس من النوع الذي يروق لي

وفي مرة ثانية أفلح بيدرو بالا في رؤية «ذي الرجل الرخوة»، وكان هذا الأخير ممدداً في الحديقة (ونقط يمر إلى جانبه)، وكان «ذو الرجل الرخوة» يسرح على كتاب مصور، ودهش بيدرو بالا حين شاهده لابساً بنطلوناً من الكشمير الرمادي، وسترة حريرية وحتى شعره كان مسرحاً، وصل بيدرو بالا فترة قصيرة النهار، دون أن

يستطيع الصغير «الذي الرجل الرخوة» وأخيراً تمالك نفسه، وصفر. وسرعان ما نهض «ذو الرجل الرخوة» على قدميه، ورأى بيدرو بالا في الجانب الآخر من الشارع، وأشار إليه بأن ينتظره واجتاز البوابة. بعد أن تأكد من أن أحداً لا يحوم في تلك الأماكن

واتجه بيدرو بالا نحو زاوية الشارع وتبعه «ذو الرجل الرخوة» وحين أدركه، ازدادت دهشة بيدرو بالا أكثر أيضاً

- لعنة الله عليك! إنك تفوح منك رائحة طيبة! يا «ذا الرجل الرخوة» أبدى «ذو الرجل الرخوة» هيئة منزعجة، لكن بيدرو بالا تابع قائلاً

إنك أكثر أناقة بعشر مرات من «القط» عجباً! فإذا جئت هكذا إلى الكوخ - هكذا كان بيدرو يسمي المستودع - سوف ينقض الآخرون عليك. إنك تبدو مثل دمية حقيقية

- لا تلح علي في الطلب... إني أتفحص الأشياء... سيكون الأمر أطول مدة، سوف أهرب، وتستطيع أنت أن تأتي مع الآخرين

- هذه المرة، لست مستعجلاً

- ذلك لأن البضاعة مقفل عليها بصورة محكمة، هكذا قال «ذو الرجل الرخوة» كاذباً

- جهد لتدبير الأمور

- بعد ذلك نذكر

- لقد أساء «الدخيل» التصرف. وقد كاد أن يعترف للشرطة. ولولا دون أنيبها في عطفه شيئاً يشربه، ويقوي عزيمته مجدداً، دون لما عدت رأيته. إنه أكثر هزلاً من ستة جدد...

وعلى هذا النحو، استأذن للذهاب، موصياً مرة أخرى «ذا الرجل الرخوة» بأن يستعجل

عاد «ذو الرجل الرخوة» ليتمدد في الحديقة. لكنه، الآن لم يعد يرى صور الكتاب إنما صار يراه، هو «الدخيل». كان «الدخيل» هو من أكثر الذين اضطهدهم «ذو الرجل الرخوة» في الجماعة. وكان ابن أشخاص عرب، ويتكلم بلهجة غريبة وطريفة، وكان هذا يتيح المجال لسيل من السخرية من جانب «ذي الرجل الرخوة». لم يكن «الدخيل» قوي البنية، ولم ينجح أبداً في تكوين مكانة بين «فرسان الرمال». رغم أن بيدرو بالا و«الأستاذ» قد سعوا لإعطائه الوسائل لذلك. وكان

يرون أنهم أن يكون بينهم أجنبي أو شبه أجنبي. لكن «الدخيل» كان يكتفي بعمليات نشل واختلاس صغيرة، متجنباً عمليات السطو المجازفة، وكان يحلم بحقيبة بضائع رخيصة يقوم ببيعها لخدم منازل الأغنياء.

كان «ذو الرجل الرخوة» يسيء معاملته بلا شفقة، ويهزأ به، وبلغته الغامضة، ويفقد به الشجاعة، لكن الآن و«ذو الرجل الرخوة» مضطجع في حديقة، على العشب الناعم، مرتدياً بدلة جديدة، ومسرّح الشعر ومعطّراً، وكتاب صور قربه، كان يفكر في «الدخيل» شبه الميت من الجوع، في حين أنه هو، أي «ذو الرجل الرخوة»، يأكل جيداً ويلبس ملابس جديدة، وليس فقط أن «الدخيل» قد لامس الموت، ولكن خلال هذه الأيام الثمانية، ما زال «فرسان الرمال» سيئي الملابس، وسيئي التغذية، ينامون تحت المطر في المستودع الذي لا سقف له تقريباً، أو تحت الجسور. وخلال هذا الوقت، كان «ذو الرجل الرخوة» ينام في سرير جيد، ويأكل مآكل جيدة ويدلله يومياً سيدة تقبله، وتدعوه ولدها. وأحس أنه خائن لجماعته، كان مشابهاً لعامل الميناء الذي كان يتحدث عنه جان داندام وهو يبصق على الأرض، دلالة على ازدرائه علامة على الازدراء. إن عامل الميناء هذا، الذي انتقل أثناء الإضراب، انكمش إلى جانب الآخرين، إلى جانب الأغنياء، لقد حطم الإضراب، وذهب يجمع الرجال من الخارج للعمل على أرصفة الميناء. ولم يعد أبداً أحد من عمال الميناء يصافحه، ولم يعد أحد منهم يعامله كصديق. والآن كان «ذو الرجل الرخوة» يصنع استثناء في بعضه ليحس بشري. فقد خان فقط لصالح هؤلاء. الأولاد الذين يشكلون «فرسان الرمال» كان هؤلاء رفاقه وصحبه، وكانوا عائليين له، وصحبيا جميع الآخرين كما كان يرى «ذو الرجل الرخوة»، وهو يحس الآن بأنه أحد يتخلى عنهم، وأنه أجند في الانتقال إلى الجانب الآخر عند هذا التفكير. قام منتفضة، وحبس: كلا، إنه لن يخونهم. فوق كل شيء، كان هناك قانون الجماعة، قانون «فرسان الرمال». والذين يخونون هذا القانون يطردون من الجماعة، ولا ينتظرهم أي شيء. حسب في هذا العالم. وما من أحد أبداً خان «فرسان الرمال». بطريقة كاد «ذو الرجل الرخوة» أن يخون بها الجماعة لكي يتحول إلى ولد مدلل، ولكي يصبح واحداً من الأولاد الذين يطلهم أفراد الجماعة ويكرهونهم. كلا، كلا. إنه لن يخون «فرسان الرمال». لقد كفته ثلاثة أيام لمعرفة أماكن وجود الأشياء الثمينة في المنزل. لكن الطعام وجودة الملابس، والمعرفة، وأكثر من المعرفة، وجودة الطعام وحنان الدونا إستير جعلته يمضي حتى الآن ثمانية أيام. لقد شعر أ

هذا الحنان، كما اشترى عامل الميناء بالمال. لكنه حين وصل إلى هذه النقطة، تساءل إذا كان سيخون الدونا إستير. لقد وضعت ثقتها فيه هي أيضاً، مثل «فرسان الرمال»، تماماً مثلما يثقون في مرشدهم. لم يكن يتعاقب إلا حين يكون هناك خطأ، وكانت ترد على الخير بالخير. إن «ذا الرجل الرخوة» سيخون هذا القانون، سيرد على الخير بالشر. وتذكر مرات أخرى حيث، حين كان يعبر من منزل لتسميته لعملية سطو، كان فرح عظيم يستولي عليه. وهذه المرة، لم يكن أي فرح يحيي في داخله. إن بعضه يراه أصبح يتلاشى. هذا صحيح. لكنه كان يستثني أصحاب هذا المنزل لأن الدونا إستير كانت تدعوه «ولدي»، وتقبله على خده. كان «ذو الرجل الرخوة» يناضل ضد نفسه. إنه يحب لو استمرت حياته هذه على هذا النحو. ولكن ماذا سيفيد هذا «فرسان الرمال»؟ إنه واحد منهم، ولن يتمكن أبداً من أن يكف عن كونه واحداً منهم، لأنه في أحد الأيام اعتقله الجنود وانهالوا عليه بالضرب، في حين كان رجل ذو صدرية سوداء يضحك ضحكاً فظاً. وصمم «ذو الرجل الرخوة» وأكد قراره. لكنه راح يتفحص بحنان بوهد غرفة دونا إستير، وهي التي كانت برفقته لاحظت أنه يبكي.

- أأنت تبكي، يا صغيري؟

والتفت من النافذة، وجاءت إليه، وحينئذ فقط لاحظ «ذو الرجل الرخوة» أنه كان يبكي. وجفف دموعه، وعض يده. وكانت دونا إستير قد صارت قربه.

- هل أنت تبكي يا أوغست؟ هل حدث شيء ما؟

- كلا، يا سيدتي. إنني لا أبكي.

- لا تكذب يا ولدي. إنني أرى ذلك جيداً. ماذا حدث؟ هل أنت تفكر في أمك؟

وجذبته نحوها، وجلست على مقعده، وأسندت رأس «ذي الرجل الرخوة» إلى صدرها الأمومي.

لا تبك. نعم، أنت الآن لديك أماً صغيرة أخرى. لا تريد سوى خيرك، وهي ستفعل كل شيء لتحل محل تلك الأم التي فقدتها. (وهو سيفعل لها كل شيء ليحل محل الولد الذي فقدته، هذا ما سمعه «ذو الرجل الرخوة» في دخيلة نفسه)

وقبلت دونا إستير على خده الذي كانت تسيل عليه الدموع

- لا تبك. وإلا أصبحت حزينة معك.

حينئذ انفرجت شفتا «ذي الرجل الرخوة»، واستغرق في البكاء، وبكى زمناً طويلاً مسنداً رأسه إلى صدر الأم. وفي حين كان يعانقها، ويتسلم قبلاتها، كان يبكي

بشدة لأنه سيتخلى عنه ، وأكثر من ذلك أيضاً ، لأنه سوف يسرقها . وربما لن تعرف أبداً أن « ذو الرجل الرخوة » لديه احساس بأنه سوف يسرق نفسه ، كما انها تجهل أن بكاءه وتحسه كانا دعوة للمغفرة .

* * *

بعد ذلك لا حدث سريعة لأن راؤول صطر للقيام برحلة إلى ريو دي جنيرو لأجل أعمال قضائية مهمة . وفكر « ذو الرجل الرخوة » بأنه لا توجد فرصة أفضل لأجل عملية السطو .

وفي فترة بعد الظهر التي ذهب فيها ، راح يتأمل المنزل كله ، وداعب بيرلوت القط ، وتحدث مع الخادمة . ونظر في كتاب الصور . وإثر ذلك ذهب إلى غرفة دونا استير وقال لها انه سيذهب للنزهة حتى شارع كامبو غراندي . وهي ، حينئذ ، سرت له بأن راؤول سيحضر له دراجة من الريو . وأنه عندئذ سوف يركبها بدلاً من السير على قدمين عبر شارع كامبو غراندي . خفض « ذو الرجل الرخوة » عينيه ، لكنه قبل أن يخرج مشى نحو دونا استير وقبلها . كانت هذه أول مرة يقبلها فيها . وسبب هذا فرحاً كبيراً لها . واضاف بصوت منخفض جداً ، منتزعاً الكلمات من اعماق ذاته :

ـ أنت طيبة جداً بالنسبة لي .

خرج ولم يعد . وفي ست الليلة نام في زاويته بالمستودع . وذهب بيدرو بالا مع فريق إلى المنزل . وأخطر الآخرون « ذي الرجل الرخوة » معجبين بملابسه ، وبشعره الممشوط جيداً ، وبالعطر الذي كان يفوح من جسمه . لكن « ذا الرجل الرخوة » قفز عن حافة ولد ، وذهب يتقدم منفرداً إلى زاويته . وبقي هناك يقرض أظافره . دون أن ينام ، وكان يحس بالقلق والغصة ، إلى أن عاد بيدرو بالا ، والآخرون حاملين نتاج عملية السطو . واعلن له « ذي الرجل الرخوة » أن عملية السطو هذه كانت أسهل عملية على الاطلاق ، وأنه لا أحد عرف بها في المنزل ، وأن الجميع واصلوا النوم . ولعلهم حتى اليوم الذي كانوا لم يكتشفوا السرقة بعد . وكان يظهر الأشياء الذهبية والفضية :

ـ غداً ، سيدفع لنا غونزاليس مالاً كثيراً لقاء هذه الأشياء الثمينة !

لكن « ذو الرجل الرخوة » غمض عينيه لكي لا يرى . وبعد أن ذهب الجميع للنوم اقترب من « القط » :

ـ هل تريد أن تعقد صفقة معي ؟

ـ ما هي هذه الصفقة ؟

ـ أعطيك هذه الملابس ، وتعطيني ملابسك .

نظر إليه « القط » معجباً بالمدهول . لا شك في أن ثيابه أفضل من ثياب جميع أفراد جماعته ، لكنها كانت ملابس عشيقه ، وهي لا تساوي أبداً قيمة البدلة الجيدة في قماشها التي يرتديها « ذو الرجل الرخوة » . وإنه مريض ، هكذا فكر « القط » في حين كان يحسب .

ـ سألني اذا كنت موافقاً ؟ وهل هذا موضع تساؤل ؟

وتبادلا الملابس . وعاد « ذو الرجل الرخوة » إلى زاويته ، وحاول أن ينام .

في الشارع كان يتقدم الدكتور [٢٣] راؤول ، مع حارسين كان هما الخادمان نفسهما اللذان شبعا « ذا الرجل الرخوة » ضرباً في السجن . كان « ذو الرجل الرخوة » يركض ، لكن الدكتور راؤول كان يدل عليه بالاصبع ، فأخذه الحارسان إلى نفس غرفة السجن . وكان المشهد هو المشهد الدائم : الجنود الذين كانوا يلهون بجعله يركض بساقه العرجاء ، ويهالون عليه بالضرب . والرجل ذو الصدرية الذي كان يضحك . ولكن هذه المرة ، في القاعة ، كانت توجد أيضاً دونا استير التي كانت تنظر إليه بعينيها الحزينتين ، وتقول انه لم يعد ابنها ، وأنه لص . وكانت عيناها دون استير تجعلانه يتألم أكثر مما كانت تؤلمه ضربات الجنود ، وأكثر من آلام ضحكة الرجل ذي الصدرية .

وسقط مبللاً بالعرق . وفر من ليل المستودع ، وذهب نحو البحر وهو يهيم عبر الرمال .

وفي اليوم التالي ، في الليل ، جاء بيدرو بالا يعطيه النقود التي كانت حصته من الغنيمة . لكن « ذا الرجل الرخوة » رفضها دون أن يعطي تفسيراً . وإثر ذلك ، جاء « ذو الكوع الناشف » مع صحيفة تتضمن أخبار لامبياو . وقرأ « الاستاذ » المقال لـ « ذي الكوع الناشف » وراح يتصفح الجريدة . وحينئذ نادى :

ـ يا « ذا الرجل الرخوة » ! يا « ذا الرجل الرخوة » !

هرع « ذو الرجل الرخوة » راكضاً . وتراكض نحوه آخرون ، وشكلوا حلقة . واعلن « الاستاذ » قائلاً :

ـ هذا يخصك ، يا « ذا الرجل الرخوة » .

وقرأ الاعلان الثاني في الصحيفة .

(٢٣) الدكتور ، هذا اللقب في البرازيل ، يشار ليس فقط إلى الاطباء ، بل يمنح هذا اللقب أيضاً للقضاة والمحامين الخ . وبصورة عامة لكل رجل يراد تكريم عليه .

ـ ملاحظة من المترجم ـ

« بالأمس اختفى من الرقم ... من شارع ... في حي « غراسيا » ولد لأصحاب المنزل، يدعى أوغست، ولا بد أنه ضاع عبر المدينة التي يكاد لا يعرفها. إن في إحدى قدميه عرجاً، وهو في الثالثة عشرة من عمره، وهو خجول جداً ويرتدي بدلة من الكريمبر الرمادي. والشرطة تبحث عنه لإعادته إلى ذويه المتألمين، ولكن حتى الآن لم تعثر له على أثر. وسوف تعطي العائلة مكافأة جيدة لمن سيعطي معلومات عن الصغير أوغست، ويعيده إلى منزله »

صمت « ذو الرجل الرخوة » صمتاً. وكان يعض على شفتيه وقال « الأستاذ »:

ـ إنهم لم يكتشفوا السرقة بعد

أجاب « ذو الرجل الرخوة » أيضاً بإيماءة من رأسه. وحين سيكتشفون السرقة لن يعودوا يبحثون عنه كولد ضائع، وكثير البراءة وذي تكشيرة هزيلة وصحو

ـ إن شرعت تبحث عنك، يا « ذا الرجل الرخوة » إن ماماك تبحث عنك لكي ترضعك

لكنه لم يعد يقول أي شيء لأن « ذا الرجل الرخوة » قد انقض عليه، شاهراً خنجره. ولكن يمكن التأكيد أن يقفز على ركبتي الصغير لو لم يسحبه جوا وغراندي و « ذو الكوع الناشف » من يديه. وقد خاف سارابنداو كثيراً. وعاد « ذو الرجل الرخوة » إلى زاويته موجهاً نظرة غضب إلى الجميع. وأدركه بيدرو بالا، ووضع يده على كتفه

ـ مهم يمكن أن لا يكتشفوا السرقة أبداً، يا « ذا الرجل الرخوة » وأن لا يعرفوا أي شيء عنك ... ولا يجب أن تخرب

ـ حين سيعود زائرون سوف يعرفون

واستغرق في تفكير، وخرج حاملاً « فرسان الرمال » مدهوشين. إن بيدرو بالا و « الأستاذ » قد فهموا وحدهم، وهذا الأخير هو بديه علامة على العجز. وبدأ بيدرو بالا حديثاً طويلاً حول موضوع مختلف جداً. وهناك، في الخارج كانت الريح تجري على الرمال، وكان هزيزها مثل شكوى أنين

صباح مثل لوحة

في حين كان بيدرو بالا يستنشق نسيم الحقل كان يبدو مفكراً في أنه لا شيء في العالم أفضل من الذهاب هكذا، كيفما اتفق، عبر شوارع باهيا. إن بضعة شوارع فقط هي معبدة بالزفت. لكن الأكثرية الساحقة من شوارع المدينة مرصوفة بحجارة سوداء. كان ينساب صباحاً فيجلس على شارع من تلك المساكن القديمة، ولم يكن أحد يستطيع أن يعلم بذلك. كانت هذه هي حافة رومانسية تنتظر مجيء روح غني، وإذا كانت موسماً شمسه عبر شرفة ضيقة جداً، مزينة بأزهار قديمة. وكانت نسوة بحجب سوداء يذهبن إلى الكنائس. وكانت الشمس تضرب على حجارة الطرق أو على الأسطح حادة، وهي تضيء سطوح المنازل. وعلى شرفة ضيقة سفلية كبيرة كانت تنمو أزهار في صناديق. هذه الأزهار كانت ذات ألوان متعددة ومختلفة، والشمس تومض في حصصها الوهمية من الضوء. وكانت أجراس كنيسة جبل في الساحل تدعو النساء المحجبات اللواتي كن يسرن بخطى مستعجلة. وفي وسط الطبيعة، كان زرنجي وحلاسي يجلسان على أزهار. البرد كان الزنجي قد انتقاه. وحيا بيدرو بالا، عند مروره بزنجي

ـ كيف حالك، أيها « الوهمة ـ لبيضاء »؟

وأنت يا بالا؟ كيف حال هذا الادعاء الصغير؟

لكن حلاسي كان قد ألقى الأزهار البرد. وكان الزنجي مهتماً كثيراً بلعبه. وتابع بيدرو بالا طريقه. كان « الأستاذ » يرافقه. وكان وجهه النحيف ملقى إلى الأمام، وكأنه من مراهق له تهز لطعته. لكنه كان يبتسم في غمد النهر. وابتعد بيدرو بالا نحوه. وفاحت شامته. وكانت المدينة مبتهجة، مغمورة بالشمس. إن بهرت باهيا بضعة أيام بعد « هكذا كان يفكر بيدرو بالا، الذي يستسلم هو أيضاً للبهجة. كان يصفر بقوة، ويربت بمرح على كتف « الأستاذ ». وراح كلاهما يضحكان، وبعد قليل، تحول الضحك إلى سعور شديد فيه. بيد أنهما لم يكن في جيوبهما سوى بضعة قروش قليلة. كانا يرددان الأسمال البالية، ولا يعرفان متى سيأكلان. لكن روحيهما

كانتا مليئتين بجمال النهار وبحرية الانطلاق في شوارع المدينة كانا يسيران ضاحكين بلا سبب، وقد وضع بيدرو بالا ذراعه على كتف «الاستاذ»، ومن حيث كانا، كان باستطاعتهما رؤية السوق ومرفأ «السفن الشراعية»، بل وحتى المستودع القديم حيث ينامان. استند بيدرو بالا إلى جدار الطلعة وقال لـ «الاستاذ»:

ـ عليك أن تصنع لوحة من هذا... إنه جميل جداً.

اقفلت هيئة «الاستاذ»:

ـ أعرف جيداً أن هذا لن يحصل أبداً...

ـ ماذا؟

ـ هناك مرات احفر فيها دماغي...

وراح «الاستاذ» يتأمل المياه هناك، في أسفل، والسفن الشراعية التي تشبه الدمى، والرجال الصغار جداً الذين يحملون أكياساً على ظهورهم.

وتابع كلامه بصوت حاد، وكأن شخصاً ما قد ضربه، قال:

ـ أنوي أن أصور يوماً كثيراً من الأشياء هنا.

ـ لديك وسائل ولو أنك دخلت المدرسة.

ـ ولكن هذا لا يمكن أبداً أن يكون شارعاً بهيجاً، لا...

لم يكن يبدو أن «الاستاذ» قد سمع مداخلة بيدرو بالا والآن، كانت عيناه تضيعان في البعيد، وبدا أكثر ضعفاً أيضاً.

ـ لماذ؟

كان بيدرو بالا مذهولاً.

ـ أفلا ترى أن كل شيء جميل؟ كل شيء بهيج.

وأشار بيدرو بالا إلى سطوح المدينة السفلى:

ـ هناك توجد ألوان أكثر مما في قوس قزح...

ـ هذا صحيح... ولكن اذا القيت نظرة على الناس... بدا لك كل شيء حزيناً ولست اتكلم على الاغنياء. أنت تعرف هذا جيداً. إنني اتحدث عن الآخرين، عن عمال الموانىء وعن رجال السوق، أنت تعرف... جميعاً بهيئة الجائعين، لا أعرف حتى أن افسر فكرتي هذا شيء غريب احس به..

لم يعد بيدرو بالا مذهولاً.

ـ لأجل هذا قاد جان دادام مرات عديدة اضرابات على ارصفة الميناء. وهو يقول أن الاشياء سوف تتغير في يوم من الايام. وسينقلب كل شيء.

ـ لقد سبق لي أن قرأت هذا في كتاب... كتاب لجان دادام. ولو كنت قد تعلمت في المدرسة، لكان ذلك أفضل. كما تقول. في أحد الأيام، سأكون قد رسمت كثيراً من اللوحات الجميلة. نهار جميل، وناس سعداء يسيرون، ويضحكون، ويتحابون، مثل ناس ناراريه، أليس كذلك؟ حسناً، ولكن أين هي المدرسة؟ أنا أريد تماماً القيام برسم مفعم بالفرح، يكون النهار فيه جميلاً، ويكون كل شيء في هذه اللوحة جميلاً. أما أن يكون الناس حزناء، فهذا لا أريده، كلا. إنني أود أن اصنع شيئاً بهيجاً

ـ من يدري أنه من الأفضل أن يصنع شيء كما تصنع أنت فهذا يمكن أن يكون جميلاً، وأكثر تأثيراً.

ـ ماذا تعرف عن ذلك؟ وماذا أعرف أنا؟ نحن لم نذهب ابداً إلى المدرسة إني أرغب في رسم صورة الناس، وصورة الشوارع، لكنني لم أذهب أبداً إلى المدرسة. وهناك أشياء كثيرة لا أعرفها...

هدأ «الاستاذ» قليلاً، ونظر إلى بيدرو بالا الذي كان يصغي اليه، ثم تابع كلامه قائلاً.

ـ هل سبق لك أن القيت نظرة على «مدرسة الفنون الجميلة»؟ انها مدهشة جداً، يا عصفي العتيق. لقد تسللت اليها يوماً، ودخلت إلى احدى قاعاتها واختبأت. وكانوا جميعاً هناك، مرتدين بلوزات بيضاء، ولم يشاهدوني. وكانوا يرسمون امرأة عارية، آه لو كنت استطيع يوماً...

ظل بيدرو بالا ساهماً ونظر إلى «الاستاذ» وكأنه، أي بيدرو، كان يفكر ثم قال، بلهجة جدية:

ـ هل تعرف كم يكلف ذلك؟

ـ ماذا؟

ـ تكاليف المدرسة؟ والاستاذ؟

ـ ما هي هذه القصة؟

ـ سوف نشترك في الدفع، سندفع لأجل دخولك المدرسة...

راح «الاستاذ» يضحك.

ـ إنك لا تدرك المسألة. هناك تعقيدات كثيرة... لا يمكن، كلا. توقف عن قول حماقات.

ـ يقول جان دادام أننا سوف نستطيع يوماً الذهاب إلى المدرسة...

وعادا يسيران وبدا أن «الاستاذ» لم يعد يحس ببهجة هذا النهار ـ كما لو أن هذا النهار ابتعد، بعيداً جداً عنه. ولطمه بيدرو بالا:

ـ في يوم من الأيام، أيها الاخ العجوز، سوف تضع كومة من الرسوم في قاعة شارع التشيلي. بدون مدرسة، وبدون أي شيء. لا يوجد واحد من طلاب مدرسة الفنون يرسم الوجوه مثلك... أنت، من هذه الناحية، متفوق...

استغرق «الاستاذ» في الضحك وضحك بيدرو هو أيضاً:

ـ وسوف ترسمني، أليس كذلك؟ وستضع اسمي في أسفل الصورة، هل ستضعه؟ الفارس بيدرو بالا، الفحل، المقدام.

واتخذ وضع مصارع، ماداً ذراعه. وضحك «الاستاذ» وضحك بيدرو هو أيضاً. وسرعان ما انفجر ضحكهما كالشظايا ولم يهدءا إلا للاختلاط بجماعة من المتسكعين الذين تحلقوا حول عازف قيثار. كان الرجل يعزف ويغني لحناً من مدينة باهيا.

حين قالت لي وداعاً

جعلت قلبي صلباً

توقفا وبعد قليل، راحا يغنيان مع الرجل. ومعهم كان الجميع يغنون، كانوا صيادين، ولصوصاً، وعمال موانىء، بل كانت هناك مومس تغني هي أيضاً، وكان الرجل صاحب القيثار منصرفاً تماماً إلى موسيقاه، بل وحتى لم يكن يرى أحداً.

ولو لم يكن الرجل قد نهض ليمضي في طريقه، مستمراً في العزف على القيثار، ومغنياً، لكانا نسيا متابعة طريقهما نحو المدينة العالية. لكن الرجل انصرف، حاملاً معه بهجة الموسيقى وتفرقت الجماعة، ومر بائع صحف، منادياً على صحف الصباح. وتابع «الاستاذ» وبيدرو بالا في صعود الطلعة، ومن ساحة «المسرح» صعدا شارع «التشيلي» وسحب «الاستاذ» الطبشورة من جيبه، وجلس على الرصيف، وبقي بيدرو إلى جانبه. وحين رأيا الشاب والفتاة قادمين، بدأ «الاستاذ» يرسم. وحقق رسماً، بأسرع ما يمكن. وكان الحبيبان قد اقتربا كثيراً فأخذ «الاستاذ» حينئذ يرسم ملامح وجهيهما. كانت الفتاة تبتسم، لا شك في أنهما خطيبان. لكنهما كانا مستغرقين في حديثهما بحيث لم يلاحظا الرسم وتوجب أن يقترب بيدرو بالا نحوهما:

ـ لا تستحق صورة الآنسة، يا سيدي...

نظر الرجل إلى بيدرو بالا، وكاد يجيبه بوقاحة، حين لاحظت الفتاة رسمة «الاستاذ»، ولفتت نظر الشاب اليها..

ـ ما أجمل هذا..

وراحت تصفق مثل طفلة قدمت لها دمية.

القى الشاب نظرة وابتسم وتحول نحو بيدرو بالا:

ـ هل انت الذي رسمت هذا، يا صغير؟

ـ بل أنه صديقي هذا الرسام «الاستاذ».

كان «الاستاذ» يضيف بعض اللمسات إلى شارب الرجل، الانيق جداً. ثم راح يكمل رسم وجه الفتاة. وهي حينئذ اتخذت وضع من يجري تصويره، وضحك الخطيبان معاً ثم تعلقت الفتاة بزند حبيبها

وأخرج الرجل محفظته، وألقى قطعة نقود من فئة الالفي ريس. التقطها بيدرو بالا على الطائر. وتابعا طريقهما وبقي الرسم وسط الرصيف، وقد لاحظته عن بعد بعض الاوانس، العائدات من السوق، وقالت احداهن.

ـ لنمض بسرعة، لأن هذه الصورة، هناك، تبدو لي انها اعلان عن فيلم جديد لباريمور ويظهر أنه شاب جميل جداً.. وهو قوي للغاية أيضاً.

وسمع بيدرو بالا و«الاستاذ» ما قالته الفتاة، وقهقها ضاحكين وسارا، يتأبط كل منهما خصر الآخر، يتابعان طريقهما عبر حرية الطرقات

توقفا من جديد امام قصر الحكومة تقريباً. كان «الاستاذ» ينتظر، والطبشورة بيده، أن يخرج «زبون أبله» من حافلة الترام وكان بيدرو بالا يصفر إلى جانبه، عما قريب سوف يملكان النقود الضرورية لدفع ثمن غداء جيد، وأيضاً لشراء هدية لـ «كلارا»، صديقة «حبيب الله الطيب» التي في هذا اليوم عيد ميلادها.

اعطت عجوز قصيرة فلساً ثمن رسمها. وكانت هذه العجوز قبيحة وقد احترم «الاستاذ» قبحها عبر الرسم ولاحظ بيدرو بالا قائلاً:

ـ لو أنك رسمتها بصورة أجمل وأرق، لكانت اعطتك المزيد.

جعل «الاستاذ» يضحك. هكذا مرت فترة قبل الظهر، وكان الاستاذ يرسم وجوه الذين يمرون في الشارع، وبيدرو بالا يلتقط قطع النقود الفضية أو النيكلية، التي كانت تلقى لهما كانت الساعة تعلن الثانية عشرة ظهراً حين ظهر رجل يدخن بمبسم سيجارة يبدو أنه ثمين جداً. وركض بيدرو بالا يبلغ «الاستاذ» منبهاً.

ـ ارسم صورة هذا الابله فهو يبدو غنياً جداً.

وشرع «الاستاذ» يرسم وجه الرجل النحيف، ومبسم السيجارة الكبير جداً، وشعر الرجل المجعد، الذي يبرز خارج القبعة. وكان الرجل يحمل أيضاً كتاباً بيده، وقد ألت

« بالاستاذ » رغبة لا يمكن مقاومتها في رسم الرجل وهو يقرأ كتابه. كاد الرجل يبتعد فاستلفت بيدرو بالا انتباهه:

ـ انظر إلى صورتك، يا سيدي.

سحب الرجل مبسم السيجارة الطويل من فمه، وسأل بالا:

ـ ماذا قلت يا ولدي؟

أشار بيدرو بالا إلى الرسم الذي كان يعمل عليه « الاستاذ ». كان الرجل يبدو جالساً (رغم أنه لم يكن هناك كرسي، ولا ما شابه، كان جالساً في الهواء) يدخن بمسم السيجارة ويقرأ في كتابه. وكان الشعر المجعد يتطاير خارج القبعة. تفحص الرجل الرسم بانتباه، وجعل يتأمله من زوايا مختلفة، لكنه لم يكن يقول شيئاً. وحين اعتبر الاستاذ أن العمل قد انتهى، سأله الرجل:

ـ أين تعلمت فن الرسم، يا عزيزي؟

ـ ليس في أي مكان.

ـ ليس في أي مكان؟ وكيف ذلك؟

ـ هذا مع ذلك صحيح، يا سيدي..

ـ وكيف ترسم أنت؟

ـ أنا أرغب في الرسم، وأوفق، فأرسم.

بدا الرجل غير مصدق. لكن امثلة أخرى بلا شك مثلت في ذاكرته:

ـ هل تعني القول انك لم تتعلم فن الرسم أبداً؟

ـ أبداً، كلا، يا سيدي.

وأضاف بيدرو بالا. أستطيع أن أؤكد ذلك، فنحن نسكن معاً، وأنا اعرف ذلك جيداً

ـ اذن، فهذه موهبة حقيقية. هكذا همس الرجل.

وعاد يتفحص الرسم، وسحب نفخة طويلة من مبسم سيجارته. وكان الولدان ينظران إلى مبسم السيجارة مسحورين

وسأل الرجل « الاستاذ »:

ـ لماذا رسمتني جالساً وأنا أقرأ كتاباً؟

حك « الاستاذ » رأسه، كما لو أنه كان من الصعب الاجابة. وأراد بيدرو بالا الكلام، لكنه كان متأثراً، ولم يقل شيئاً. وفي النهاية، أوضح « الاستاذ » قائلاً

ـ فكرت أن هذا يناسبك بصورة أفضل

وحك رأسه مجدداً.

ـ لكنني لست اعرف حقاً لماذ؟

وهمس الرجل بصوت أكثر انخفاضاً: هذه موهبة حقيقية... قال ذلك بهيئة شخص حقق اكتشافاً.

كان بيدرو بالا ينتظر النقود لا سيما وأن الحارس كان يراقبهم بحذر وريبة. وكان « الاستاذ » يرمق مبسم سيجارة الرجل، الطويل (أي المبسم)، الموشوم، وهو تحفة رائعة، لكن الرجل تابع قائلاً.

ـ أين تسكن؟

لم يعط بيدرو بالا وقتاً « للاستاذ » لكي يجيب. وكان هو، أي بيدرو، الذي تكلم:

ـ نحن نقطن مدينة القش..

دس الرجل يده في جيبه، وسحب منها بطاقة زيارة:

ـ هل تعرف القراءة؟

ـ أجل نحن نعرف القراءة، يا سيدي.

ـ هذه البطاقة تحمل عنواني وأريد أن تأتي وتسأل عني ولعلي استطيع أن أفعل شيئاً من أجلك.

تناول « الاستاذ » البطاقة. وسار الحارس نحوهم. وبيدرو بالا استأذن للذهاب.

ـ إلى اللقاء يا دكتور.

وكاد الرجل أن يسحب محفظته، لكنه فاجأ نظرة « الاستاذ » إلى مبسم السيجارة فألقى منها السيجارة، وقدم المبسم للولد.

ـ هذا من أجل صورتي، تعال وزرني في منزلي.

لكن الولدين انحدرا بسرعة نحو شارع « التشيلي »، لأن الحارس كان قد وصل اليهما تقريباً وكان الرجل ينظر دون أن يفهم، حين سمع صوت الحارس:

ـ هل سرقا منك شيئاً، يا سيدي؟

ـ كلا، لماذا؟

ـ لأنه، نظراً لأن هذين اللصين كانا قربك...

ـ إنهما ولدان، ثم إن احدهما أظهر استعداداً ممتازاً للرسم

رد الحارس: ـ إنهما لصان وهما من عصابة « فرسان الرمال ».

ـ « فرسان الرمال »؟ هكذا سأل الرجل وهو يجهد لكي يتذكر. لقد سبق أن قرأت شيئاً في هذا الصدد ألا يتعلق الأمر بأولاد مشردين لقطاء؟

- لصوص، نعم، هكذا هم.

إنتبه، يا سيدي، حين يقتربون منك. وأنظر إذا لم تكن قد فقدت شيئاً ما...

أشار الرجل بالنفي. ونظر إلى ناحية الشارع. ولكن لم يبق اي اثر للغلامين. وشكر الرجل الحارس، مؤكداً مرة أخرى أنه لم يسرق منه شيء، ونـزل في الطـريـق وهـو يهمس:

- هكذا نفقد فنانين كباراً. وهذا الصبي يمكن أن يصبح رساماً عظيماً!

كان الحارس يتأمل في الرجل. وإثر ذلك علق قائلاً لازرار بزته:

- محق تماماً من يقول أن هؤلاء الشعراء ممسوسون، فاقدوا العقل...

كان «الاستاذ» يظهر مبسم السيجارة. وكانا قد وصلا إلى خلفية ناطحة سحاب، يوجد فيها (أي الخلفية) مطعم ممتاز. وكان بيدرو بالا يعرف كيف يحصل من الطباخ على بقايا الطعام. ووقفا ينتظران طعامها في الشارع الخالي من المارة. وبعد أن اكلا، قدم بيدرو بالا السجائر، وكان «الاستاذ» يتأهب للتدخين بمبسم السجارة، الذي اعطاه الرجل له. وسعى لتنظيفه.

- الحيوان نحيف مثل العصا. ويمكن أن يكون مسلولاً...

ونظراً لأن «الاستاذ» لم يجد لأجل تنظيف مبسم السيجارة شيئاً أفضل من بطاقة زيارة الرجل. فقد فتلها وأدخلها في مبسم السيجارة، وحين انتهى من تنظيفه، رمى الورقة في الشارع. وسأله بيدرو بالا:

- لماذ لا تحتفظ بها؟

- ولأي شيء؟

واستغرق «الاستاذ» في الضحك. وجاراه بيدرو بالا وملأت ضحكاتها الشارع فترة. كانا يضحكان هكذا، بدون سبب، لمجرد متعة الضحك.

لكن بيدرو بالا استعاد جديته:

- كان يبدو أن الرجل قادر تماماً على مساعدتك لتصبح رساماً...

وتناول البطاقة وقرأ اسم الرجل:

وقال: - عليك الاحتفاظ بها، فمن يدري؟

خفض «الاستاذ» رأسه:

- كف عن البلاهة، يا بالا. انت تعرف جيداً أنه لا يظهر من وسطنا إلاّ لصوص... ومن ترى يمكن أن يهتم بنا؟ من؟ لا شيء سوى اللصوص، لا شيء سوى اللصوص...

كان صوته يرتفع عالياً، وأصبح الآن يصرخ في حقد.

هز بيدرو بالا رأسه بالايجاب، وتركت يده البطاقة التي سقطت في الساقية. والآن م يعودا يضحكان، بل أصبحا حزينين وسط بهجة هذا الصباح المشمس، هذا الصباح المشابه للوحة رسام من «الفنون الجميلة».

كان عمال يمرون ذاهبين إلى عملهم، بعد فطور الفقراء، كان هذا هو كل ما يريانه، كل ما توصلا إلى رؤيته في ذلك الصباح.

* * *